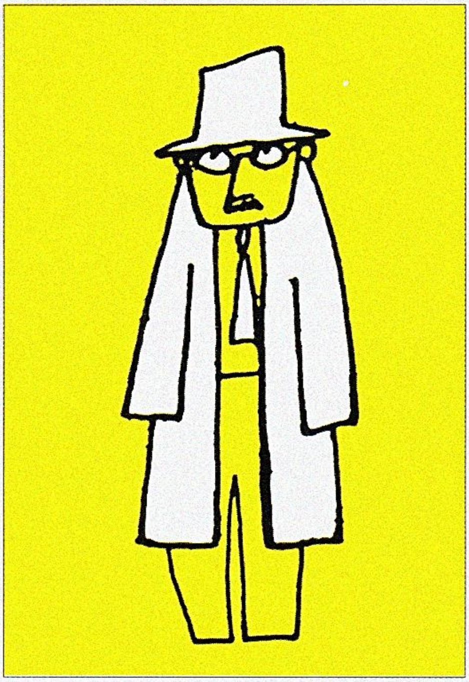
فيلهلم رايش

# خطاب إلى الرجل الصغير



منشورات الجمل

علي مولا

فيلهلم رايش: خطاب إلى الرجل الصغير

## فيلهلم رايش

# خطاب إلى الرجل الصغير

ترجمة : رشيد بوطيب

منشورات الجمل

**فيلهلم رايش** (١٨٩٧-١٩٥٧) محلل نفسي نمساوي، أحد تلامذة سيغموند فرويد. بعد صراعات عديدة مع المدرسة الفرويدية للتحليل النفسي من جانب ومع الحزب الشيوعي من جانب آخر، طُرد عام ١٩٣٤ من الحزب الشيوعي ومن جمعية المحللين النفسيين الدولية. هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ حيث طُورد بسبب أبحاثه وسُجن. لاقى حتفه في السجن عام ١٩٥٧. من أشهر مؤلفاته: **وظيفة الذروة الجنسية** (١٩٢٧)، **علم النفس الجماهيري للفاشية** (١٩٣٣)، **الثورة الجنسية** (١٩٤٥).

**رشيد بوطيب** (كاتب ومترجم من المغرب، ولد سنة ١٩٧٣ بمدينة مكناس، المغرب. حصل على الاجازة في الأدب العربي من جامعة محمد الخامس بالرباط، ويتابع دراساته العليا شعبة الفلسفة والعلوم الانسانية في جامعة ماربورغ آلمانيا. نشر العديد من المقالات والأبحاث والترجمات في العديد من الجرائد والمجلات العربية والأجنبية. يقيم منذ ١٩٩٨ في المانيا).

**فيلهلم رايش: خطاب إلى الرجل الصغير**، ترجمة: رشيد بوطيب

الطبعة الأولى، كولونيا - آلمانيا ٢٠٠٣

Wilhelm Reich: Rede an den kleinen Mann, 1948

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إن كل تشابه مع شخصيات حية أو ميتة هو محض صدفة.

«... أنتم أيها المغفلون، الساخرين مني!
على ماذا تعتاش سياستكم، منذ أن حكمتم العالم؟
سوى الرشوة والقتل...»

**تيل أولنشبيغل: دي كوستر**

# تمهيد

هذا "الخطاب إلى الرجل الصغير" هو وثيقة إنسانية وليس علمية. تم تحريره في صيف ١٩٤٦ لأرشيف مؤسسة أورغون، دون أدنى نية في نشره. لقد كان نتيجة للهزات الداخلية التي ألمت بباحث علمي وطبيب، عاش عقودا طويلة بسذاجة في البداية، ثم بدهشة، وأخيرا بفزع وخوف، ما اقترفه الرجل الصغير من الشعب بحق نفسه. كيف تألم، وتمرد، كيف قدس أعداءه، وقتل أصدقاءه، كيف، حيثما حصل على السلطة كـ"ممثل للشعب" أساء استغلالها واستعملها بوحشية، تماما مثل السلطة التي كابدها في السابق من طرف بعض الساديين أو من قبل الطبقات العليا. "الخطاب" كان جوابا على الهراء والحط من الشرف. لما تم تحريره، لم يكن أحد يدرك أن الحكومة التي من مهامها حماية الصحة العامة، ستعمل رفقة سياسيين وتجار التحليل النفسي على مهاجمة الأبحاث المتعلقة بالطاقة الحيوية للإنسان Orgon. فمحاولة هذا "الطاعون الروحي" سنة ١٩٤٧ تدمير هذه الأبحاث (ليس عن طريق إثبات أنها خاطئة، ولكن فقط عن طريق الحط من

قيمتها) كان الدافع وراء نشر هذا "الخطاب" كوثيقة تاريخية. والحكمة من وراء ذلك، أنه من الضروري أن يعرف الإنسان العادي، كيف يعمل فعلا عالم ومحلل نفسي، وكيف يظهر الرجل الصغير أمام عينيه المجربتين. على الرجل الصغير أن يتعلم كيف يتعرف على الواقع، فهذه المعرفة وحدها قادرة أن تقف ضد إدمانه للسلطة. على المرء أن يقول له بوضوح، أي مسؤوليات تقع على عاتقه، هل عليه أن يعمل، أن يحب، أن يحقد أو يثرثر. عليه أن يعرف كيف يتحول إلى فاشي أسود أو أحمر. فكل من يناضل من أجل سلامة الأحياء وحماية أطفالنا، عليه أن يكون ضد الفاشيين السود كالحمر. ليس فقط، لأن اليوم الفاشي الأحمر، مثل الفاشي الأسود بالأمس، يحمل أيديولوجية مدمرة، بل لأنه يحطم أبناءنا الذين ولدوا بصحة جيدة، ويحولهم إلى دمى، وإلى بُلّهٍ أخلاقيين. ولأنه بالنسبة له تأتي الدولة قبل القانون، والكذبة قبل الحقيقة، والحرب قبل الحياة، ولأن الطفل، وحماية ما هو حي بالطفل، هو الأمل الأخير الذي تبقى لنا. ان للمربي والطبيب ولاء واحداً: ولاء لما هو حي في الطفل وما هو مريض. فإذا ما تحقق هذا الولاء، فانه سيتم بطريقة سهلة حل كل المشاكل الكبيرة "للمصالح السياسية الخارجية". إن "الخطاب" لا يدعو إلى اتخاذه مثلا أعلى في الحياة. انه يصف العواصف التي

أحدقت بالحياة العاطفية لإنسان مبدع، مغتبط بالحياة. إن "الخطاب" لا يبغي إقناع أحد أو ربحه لصفه أو السيطرة عليه. انه يصور الحياة كما تصور لوحة عاصفة رعدية. وهو لا يطلب من القارئ أن يعبر عن تعاطفه معه. انه لا يحتوي على أهداف أو برامج. وهو يطالب بكل بساطة بحق الباحث والمفكر في الكلام، هذا الحق الذي لم ينكره أحد قط للفيلسوف والشاعر. انه احتجاج ضد النية الغبية والمبيتة "للطاعون الروحي" إطلاق سهامه المسمومة على الباحث الكادح. وهو يفضح هذا "الطاعون الروحي"، كيف يشتغل، وكيف يقف حجر عثرة أمام التقدم. وهو أيضاً شهادة على الثقة بالكنوز العظيمة الكامنة بأعماق "الطبيعة الإنسانية" والتي وضعت لتحقيق آمال الإنسان.

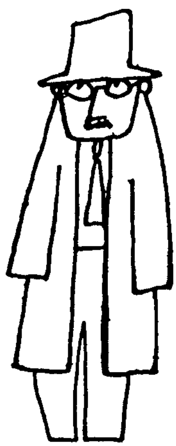
إن الكائن الحي هو في علاقاته الاجتماعية والإنسانية طيب القلب، ساذج، ومعرض للضرر من طرف العلاقات القائمة. وهو يعتقد أن الآخر له نفس خصاله. إنه يفترض أن الآخر يتصرف حسب قوانين الحياة، بطيبة وتضامن. إن هذا الموقف الداخلي الطبيعي، الذي نجده عند الطفل السوي كما نجده عند الإنسان البدائي، يتحول إلى خطر كبير في النضال من أجل عقلنة الحياة، طالما ظل "الطاعون الروحي" قائما. فحتى المريض بالطاعون ينسب للآخرين طريقة تفكيره

وتصرفه. الطيب يعتقد أن كل الناس طيبين، وأنهم يتصرفون بطيبة. والمريض بالطاعون يعتقد أن كل الناس يكذبون، يغالطون، ويخدعون، وأنهم مصابون بجنون الحكم. وانه لجلي، أنه بسبب ذلك يحدق الخطر بالكائن الحي. فحيثما تواجد مرضى الطاعون سوف يتم الاستهزاء به وخيانته، وحيثما يثق بالآخر سوف يتم خداعه.

هكذا تمت الأمور حتى الآن. والآن فقد حل الوقت الذي يتوجب فيه على الكائن الحي أن يتحلى بالصلابة حيثما يحتاج إليها في نضاله من أجل السلم والتقدم. انه لن يفقد عن طريق ذلك طيبته، كلما ظل متعلقا في شجاعة بالحقيقة. إنها قطعة من الحقيقة مليئة بالأمل، أنه من بين الملايين من الناس المجتهدين والنزيهين، يوجد فقط قليل من مرضى الطاعون الذين يخلقون الفساد القاتل، ويشعلون الدوافع الأكثر ظلمة وخطرا بالبنية الإنسانية للإنسان العادي، ويعمدون إلى تنظيمها وقيادتها نحو القتل السياسي. ولا وجود لترياق ضد الطاعون في الإنسان العادي خارج إحساسه الخاص بما هو حي في الحياة. إن الكائن الحي لا يطالب بالسلطة، وإنما بالاعتبار في الحياة الإنسانية. إنه يقف على ثلاث دعائم: الحب، والعمل، والمعرفة.

ويتوجب على من يريد حماية الحياة ضد "الطاعون

الروحي"، أن يتعلم حرية التعبير التي يتمتع بها المرء في أمريكا وبلاد أخرى، و أن يستعملها من أجل الخير، على الأقل بنفس المقدار الذي يستغلها به "الطاعون الروحي" من أجل الشر . فمتى امتلك الناس نفس الحق في التعبير عن أرائهم، فسوف ينتصر العقلاني من هذه الأراء في النهاية. إن هذا لأمل كبير.



انهم يسمونك: "إنسانا صغيراً"، "إنسانا نذلاً"، "إنسانا مبتذلاً"، ويقولون بأن حقبتك قد بدأت، "حقبة الإنسان الصغير". The Age of the common Man

أنت لم تقل هذا، أيها الرجل الصغير. انهم يقولونه، رؤساء الأمم الكبرى، مدراء العمل، أبناء البورجوازيين، رجالات الدولة، والفلاسفة. انهم يمنحونك المستقبل، لكنهم لا يسألونك عن ماضيك.

انك ارث ماض رهيب. إرثك هو ماس متوهج بين يديك. إنني أقول لك ذلك!

كل طبيب، كل حذاء، ميكانيكي أو مُرَبٍّ، يتوجب عليه أن يعرف نقائصه، إذا أراد أن يؤدي عمله ويربح قوت يومه. انك منذ عقود في طريقك إلى السيطرة على الأرض. وبفكرك وسلوكك يرتبط الآن مستقبل النوع البشري. ولكن معلميك وأسيادك لا يقولون لك كيف تفكر، ومن تكون. لا أحد يجرؤ على انتقادك، هذا النقد الذي بإمكانه أن يجعلك مستقرا وسيدا على مصيرك. انك "حر" ولكن فقط في معنى واحد: حر من التربية ومن قيادة الذات، حر من النقد الذاتي.

لم أسمعك أبدا تشتكي: "أنكم تنصبونني سيدا على نفسي وعلى العالم، ولكنكم لا تقولون لي، كيف يصبح المرء سيد

نفسه، ولا تقولون لي أين تهت وأين أخطأت التفكير والتصرف" انك تترك حكامك يطالبون بالسلطة "للرجل الصغير" ولكنك أنت نفسك أخرس، تغدق على الأقوياء المزيد من القوة ولا تمنح الضعفاء سوى نظرات عدائية، لكي تدافع عن نفسك. ولكنك سوف تكتشف متأخرا أنك كنت دائما المخدوع.

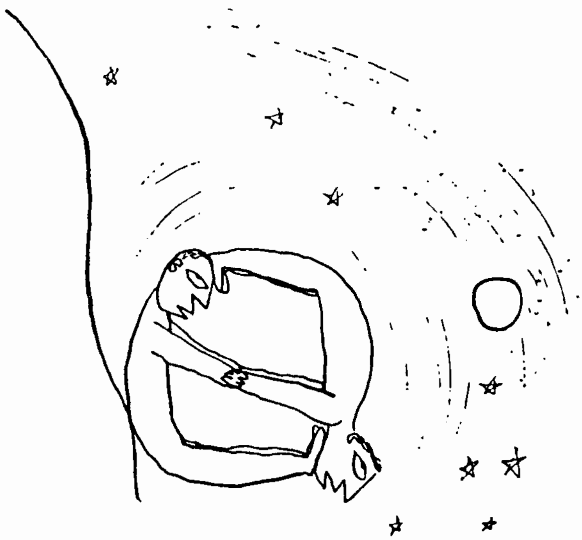
إنني أفهمك لأني رأيتك عاريا روحا وجسدا آلاف المرات دون قناع أو حزب أو ورقة انتخاب، ودون "شعبيتك". عاريا مثل مولود جديد، وعاريا مثل جنرال، لا ترتدي سوى صديرية للأطفال. لقد بكيت في حضوري، وتحسرت، ووصفت لي أشواقك، وكشفت أمامي حبك، وحزنك. إننى أعرفك، وأفهمك. أريد أن أقول لك، كيف أنت أيها الرجل الصغير، لأني أعتقد حقا بمستقبلك. إنه ملك لك بلا شك. لهذا انظر إلى نفسك أولا، انظر كيف أنت في الواقع. واسمع ما لم يجرؤ أحد من زعمائك وممثليك على قوله لك: أنت "رجل صغير، ونذل". افهم المعنى المزدوج لهذه الكلمات: "صغير" و"نذل"...

لا تهرب! فلتكن لديك الشجاعة للتحديق بنفسك!

"بأي حق تريد أن تعلمني؟" أرى هذا السؤال يخفق في عيونك الخائفة. أسمع هذه الكلمة من فمك الوقح، أيها الرجل الصغير! انك تخاف النقد تماما كما تخاف السلطة التي

وعدوك بها، أيها الرجل الصغير. إنك لا تعرف كيف عليك أن تستعمل سلطتك، ولا تستطيع أن تتصور ، أنه كان بإمكانك أن تشعر بنفسك شيئا آخر غير ما تحس به الآن: حرا وليس منكس الهامة، متفتحا، وليس تكتيكيا، محبا في وضح النهار، وليس مثل لص في حلكة الليل. انك تحتقر نفسك، أيها الرجل الصغير. تقول: "من أكون أنا، حتى أكون رأيا خاصا بي، وأحدد حياتي، وأفهم عالمي؟" معك حق: من أنت حتى تطالب بحقك في حياتك؟ أريد أن أقول لك من تكون!

أنت تختلف عن الرجل الكبير الحقيقي في شيء واحد فقط: الرجل الكبير كان هو نفسه يوما ما رجلا صغيرا جدا، استطاع أن يطور ميزة واحدة، ومهمة:

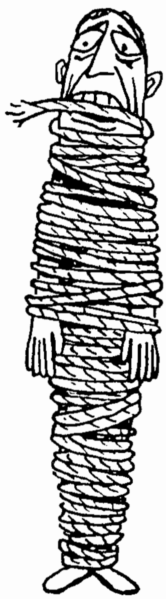


لقد تعلم أن يكتشف متى يكون صغيرا، وضيقا في تفكيره، وسلوكه. تحت ثقل واجب ما، عزيز على قلبه، تعلم أن يحس متى يصبح صغره وصغاره خطرا على سعادته. الرجل الكبير يعرف إذن، متى، وكيف يصبح رجلا صغيرا. الرجل الصغير لا يعرف ذلك، ويخاف معرفة ذلك. انه يخفي صغاره وضيقه بأوهام القوة والعظمة، قوة، وعظمة أجنبية عليه. انه فخور بجنراله العظيم، ولكن ليس بنفسه. وهو يتعجب من الفكرة التي لا يملكها، وليس من الفكرة التي يملكها. وهو يعتقد بقوة الأشياء كلما كان عاجزا عن فهمها، وهو لا يعتقد بالأفكار التي يفهمها بسهولة.

إنني أريد أن ابدأ بالرجل الصغير الذي يسكنني:

منذ خمس وعشرين سنة، وأنا أدافع بالكلمة، والكتابة عن حقك في السعادة على هذه الأرض. إنني أتهمك بالعجز عن انتزاع ما هو حق لك، وعن حماية ما أحرزته من انتصارات في نضالاتك الدموية في المتاريس الباريسية، والفييناوية، في حرب التحرير الأمريكية، في الثورة الروسية. لقد انتهت باريسك إلى بيتان ولافال، وفيينا إلى هتلر، وروسيا إلى ستالين، ولربما ستنتهي أمريكا إلى نظام KKK لقد فهمت جيدا كيف تحقق حريتك، أكثر مما فهمت كيف تحافظ عليها لك ولغيرك. إنني أعرف هذا منذ زمن بعيد، ولكنني لا أعرف

لماذا تهوي دائما بنفسك إلى الوحل الذي تعذبت بداخله طويلا بالسابق. وبدون أن أثير انتباه أحد، متحسسا ومجيلا النظر بدقة، عرفت من يستعبدك، أنت من تستعبد نفسك ولا أحد غيرك، أقول لك، وهذه هي الحقيقة، لا أحد غيرك يحمل وزر عبوديتك!



انه شيء جديد بالنسبة لك، أليس كذلك؟ محرروك يقولون لك، بان المتسلطين عليك كانوا فيلهلم، نيكولاس، البابا غريغور ٢٨، مورغان، كروب، فورد. محرروك هم موسوليني، نابليون، هتلر، ستالين.

وأنا أقول لك: أنت وحدك من تستطيع أن تحرر نفسك! إنني أتشبث بهذه الجملة. أزعم أني مقاتل من أجل الصفاء، والحقيقة. والآن، وقد حان الوقت لقول الحقيقة حول وضعك، أتردد، خوفا منك، ومن موقفك من الحقيقة. الحقيقة قد تشكل خطرا على الحياة، إذا ما تعلق الأمر بك. الحقيقة هي منقذة للحياة، لكنها تتحول أحيانا إلى ضحية لكل اللصوص! وإلا لما كنت الآن حيث أنت، وكيف أنت.

عقلي يقول لي: قل الحقيقة مهما كلف الثمن! الرجل الصغير بداخلي يقول لي: من الغباء أن تنزل بالحقيقة إلى الرجل الصغير، أن تقدمها له. الرجل الصغير لا يريد سماع حقيقته. انه لا يريد تحمل المسؤولية الكبيرة التي تقع عليه، التي هي مسؤوليته أحب أم كره. انه يريد أن يظل رجلا صغيرا، أو أن يصبح رجلا كبيرا صغيرا. انه يريد أن يصبح غنيا، رئيسا للحربية، سكرتيرا لجمعية الرقي بالأخلاق العامة. ولكنه لا يريد تحمل مسؤولية عمله، مسؤولية التموين الغذائي، بناء المنازل، المواصلات، التربية، البحث، الإدارة،

التعدين.

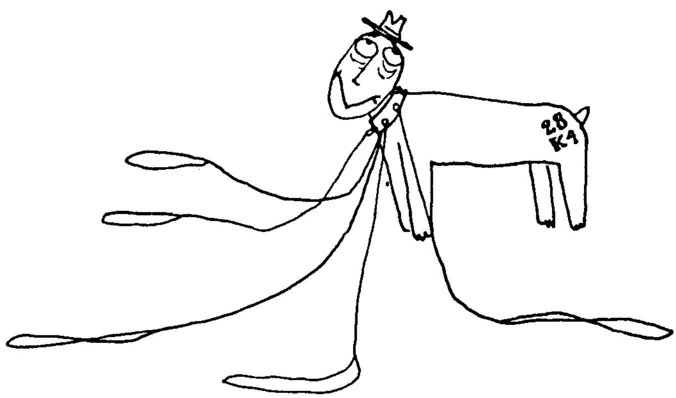
الرجل الصغير بداخلي يقول لي:

"لقد أصبحت رجلا كبيرا، مشهورا في ألمانيا، النمسا، البلاد الاسكندنافية، إنكلترا، أمريكا، فلسطين. الشيوعيون يحاربونك. "حراس القيم الثقافية" يكرهونك. تلامذتك يحبونك. مرضاك الذين عالجتهم يحترمونك، مرضى الطاعون يطاردونك. كتبت ١٢ كتابا و١٥٠ مقالا حول بؤس الحياة، بؤس الرجل الصغير. إنهم يدرسونك بالجامعات، رجال كبار آخرون يعيشون منعزلين، يقولون بأنك فعلا رجل كبير. وهم يضعونك في مرتبة عمالقة العلم. لقد قمت بأكبر اكتشاف منذ قرون، فأنت اكتشفت طاقة الحياة الكونية، وقوانين الكائن الحي. لقد جعلت مرض السرطان مفهوما. ولقد طاردوك من بلد إلى بلد، لأنك قلت الحقيقة. والآن استرح! ولتفرح بنجاحك، ومجدك. بعد سنوات سيصبح اسمك على لسان كل إنسان. لقد قمت بأشياء كثيرة. فلتخلد الآن إلى الراحة، ولتكرس نفسك لقانون الطبيعة الوظيفي!

هكذا يتكلم الرجل الصغير بداخلي، الذي يشعر بالخوف منك، أيها الرجل الصغير؟

منذ زمن وأنا على اتصال بك، لأني أدركت حقيقة حياتك من حياتي الشخصية نفسها، ولأني كنت أريد مساعدتك. ولقد

ظللت على اتصال بك، لأني رأيت أني فعلا أستطيع مساعدتك، ولأنك أيضاً قبلت عن طيب خاطر، والدموع تترقرق في عينيك مساعدتي. ومع الوقت، رأيت بأنك تحب الحصول على المساعدة، ولكنك لا تحب الدفاع عن ذلك. لقد ناضلت بقوة من أجلك، ونيابة عنك. ثم جاء الزعماء، وحطموا عملي.




ظللت أخرسَ، وسرت خلفهم. والآن أظل على اتصال بك لكي أتعلم كيف يمكن مساعدتك، دون أن أصبح قائدا لك أو ضحية. الرجل الصغير بداخلي يريد أن يستولي عليك، أن "ينقذك"، أن تنظر إلي بنفس الخجل الذي تشعر به أمام "علم

الرياضيات" لأنه لا معرفة لك بجوهره. وكلما كنت غير قادر على الفهم، كلما كنت مستعدا على إظهار إجلال اكبر. انك تعرف هتلر أكثر من نيتشه، نابليون اكثر من بيتالوزي. وملك بالنسبة لك أهم من فرويد. الرجل الصغير بداخلي يريد أن يستولي عليك، كما فعل دائما المتسلطون على رقبتك، بطبل الزعامة: إنني اشعر بالخوف منك، إذا ما أراد الرجل الصغير بداخلي أن يقودك إلى "الحرية". فأنت قادر على اكتشاف نفسك فيّ، والعكس صحيح، أن تشعر بالخوف مني، أن تقتل نفسك بداخلي. لهذا توقفت منذ وقت قصير، أن أكون عبدا طيعا لحريتك، أن أموت من أجل حريتك.

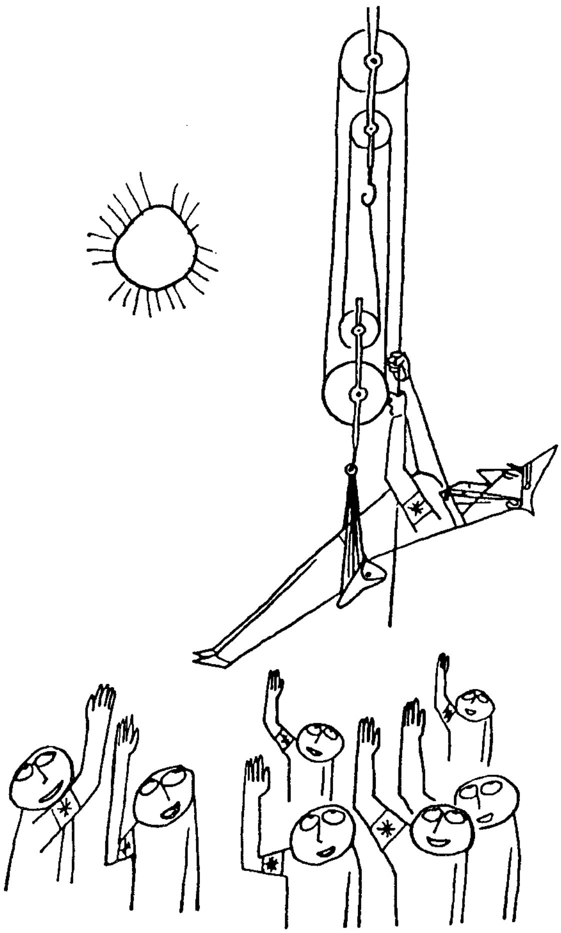
ما قلته الآن، لا يمكنك أن تفهمه، اعرف ذلك: "أن أكون عبدا طيعا لحريتك" ليس بالشيء البسيط.

وليس فقط عبدا وفيا لسيد واحد، من أجل أن يصبح المرء عبدا طيعا للحرية، على المرء في البدء أن يحطم طاغية ما، فلنقل القيصر. هذا القتل السياسي لا يمكن للمرء أن يحققه بدون أن يكون له مثال عال للحرية وأسباب ثورية. إن المرء يؤسس حزبا تحرريا ثوريا تحت قيادة رجل كبير، فلنقل المسيح أو ماركس أو لينكولن أو لينين، إن الرجل الكبير حقا، يفكر بجدية في حريتك. وإذا ما أراد تحقيق ذلك، فعليه أن يحيط نفسه بالكثير من المساعدين، والعمال، لأنه يعرف أنه

لن يستطيع تحقيق هذا العمل وحده. وسوف لن تستطيع فهمه فوق هذا، وستتركه على يسارك إذا لم يجمع حوله الكثير من الرجال الصغار الكبار. مع الكثير من الرجال الكبار الصغار، يستطيع أن يسيطر على السلطة، أو على قطعة من الحقيقة، أو أن يحقق لك عقيدة جديدة، أفضل من سابقاتها. انه يكتب وصايا، ويخلف قوانين للحرية، ويعتمد على مساعدتك، على جديتك، واستعدادك للتضحية. انه يخرجك من الوسخ الاجتماعي الذي أنت غارق به حتى الأذنين. وحتى يتم الحفاظ على الكثير من الصغار الكبار مجتمعين، وحتى لا يفقد المرء ثقتك، يجب على الرجل الكبير أن يضحي بسموه قطعة قطعة، هذا السمو الذي امتلكه في عزلة فكرية عميقة، بعيدا عنك، وعن ضوضائك اليومية، ولكن أيضاً في اتصال وثيق بحياتك. وحتى يقودك، عليه أن يتحمل تحويلك إياه إلى اله. فلا يمكنك أن تثق به، إذا ما ظل الإنسان البسيط الذي كانه، فلنقل، الذي أحب امرأة دون عقد زواج. هكذا تصنع إلهك الجديد. وحين يتحول الرجل الكبير إلى إله، يفقد سموه الذي حققه عن طريق الاستقامة، والبساطة، والشجاعة، والتقرب من الحياة. الصغار الكبار، الذين أخذوا عظمتهم من الرجل الكبير، يملكون أعلى مناصب المالية، والديبلوماسية، والحكومة، والعلم، والفن... وأنت تظل حيث كنت، في الوسخ! وستعيش

دائما في خرقة من أجل تحقيق "المستقبل الاشتراكي" أو "الرايخ الثالث". وستستمر في الحياة في بيوت الطين المسقفة بالقش، والمطلية جدرانها بروث الأبقار. ولكنك فخور بقصر الثقافة في مدينتك. يكفيك وهم انك تحكم.. وحتى الحرب القادمة، وسقوط الإله الجديد.

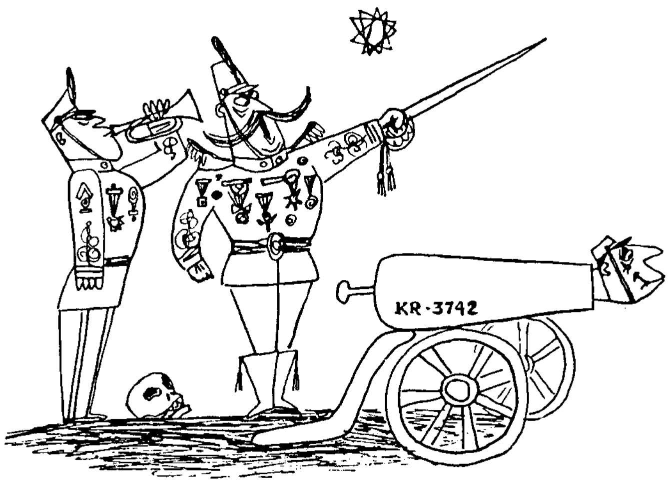
في البلدان البعيدة درس الرجال الصغار بعناية شوقك إلى أن تصبح عبدا طيعا، وتعلموا من ذلك كيف يستطيع المرء بقليل من الجهد الفكري أن يصبح رجلا صغيرا كبيرا. هؤلاء الرجال الصغار ينحدرون من بيئتك، وليس من القصور. لقد جاعوا مثلك، وتألموا مثلك، وقد قصروا عملية تغيير الإله. لقد تعلموا أن عشرة عقود من العمل الفكري الكبير على حريتك، والتضحيات الشخصية الكبيرة من أجل سعادتك، بل والتضحية بالحياة من أجل حريتك كانوا ثمنا كبيرا، من أجل الوصول إلى عبوديتك الجديدة. فما فكر فيه، وعاناه مفكرون أحرار في مائة عام كان بالإمكان تحطيمه في خمس سنين. الرجال الصغار من وسطك يقصرون هذه العملية. انهم يقومون بذلك في وضوح وعنف. ويقولون لك بصراحة بأنك، وحياتك، وأطفالك، وعائلتك لا قيمة لكم، بأنك غبي، وعبد، وأنه بإمكان المرء أن يفعل بك ما يريد. انهم لم يعدوك بالحرية الشخصية، ولكن بالحرية القومية. وهم لم يعدوك باحترام



الإنسان، ولكن باحترام الدولة، ليس بالعظمة الشخصية، ولكن بالعظمة الوطنية. فلأنك تجهل "الحرية الشخصية"، و"السمو الشخصي" في الوقت الذي يسيل لعابك كما تسيل عظمة لعاب كلب، كلمات مثل "الحرية القومية"، و"مصالح الدولة"، فإنك تهلل خلفهم. لا أحد من هؤلاء الرجال الصغار دفع ثمن الحرية الحقيقية، كما فعل جيوردانو برونو، المسيح، كارل ماركس أو لنكولن. إنهم يحتقرونك، ولا يحبونك لأنك تحتقر نفسك. إنهم يعرفونك جيدا أكثر من روكفلر أو توريزن. انهم يعرفون نقط ضعفك الخبيثة التي عليك أنت وحدك معرفتها. إنهم ضحوا برمز من أجلك، وأنت تحملهم نحو السلطة على ظهرك. إنك وحدك من ترفع أسيادك، من تطعمهم، مع أنهم أسقطوا كل الأقنعة. لقد قالوا ذلك بوضوح لك: أنت إنسان من الدرجة الثانية، انسان بلا مسؤولية، وعليك أن تظل كذلك. إنك تسميهم "المخلصون الجدد"، وتهلل خلفهم.

لهذا السبب أشعر بالخوف منك أيها الرجل الصغير، خوفا جامحا. فأنت من تملك قدر العالم الإنساني. أشعر بالخوف اتجاهك، لأنك لا تهرب من شيء قدر هروبك من نفسك. أنت مريض، جد مريض أيها الرجل الصغير. ليس هذا ذنبك، ولكن عليك تقع مسؤولية التحرر من مرضك. كان بإمكانك أن تكون منذ زمن قد تخلصت من نير المتسلط عليك، إذا لم تصبر على

المتسلط، ولم تقدم له يد المساعدة. ولو أنك كنت تملك ذرة احترام واحدة لنفسك، لما استطاع أي بوليس في العالم أن يتسلط عليك. لو أنك عرفت، حقا عرفت، بأنه بدونك لا يمكن للحياة أن تستمر. هل قال لك محررك ذلك؟ لقد سماك "بروليتاريا كل العالم"، ولكنه لم يقل لك، بأنك أنت، وحدك أنت، مسؤول عن حياتك. (وليس عن شرف الوطن الأم).




ويجب أن تعرف أنك من صنع من رجاله الصغار متسلطين عليه، ومن رجاله الكبار حقا شهداء، أنك أنت من صلبهم، وضربهم، وتركهم يجوعون، أنك لم تهتم بهم، ولا بتضحيتهم

من أجلك، أنك لا تعرف إلى من يرجع فضل المتع القليلة التي تتوفر عليها حياتك.

"إنني أريد شهادتك، حتى أثق بك"

حين تسمع شهادتي، سوف تعدو نحو محاميك أو نحو "لجنة مكافحة الأنشطة المعادية لأمريكا" أو إلى الإف بي آي أو ... أو إلى زعيمك الوحيد أو ببساطة تلوذ بالفرار.

لست بأحمر، ولا أسود، ولا أبيض، ولا أصفر.

لست مسيحيا، ولا يهوديا، ولا مسلما، ولست مورمونيا أو مؤمنا بتعدد الزوجات أو شاذا جنسيا أو فوضويا أو ملاكما.

إنني أضم زوجتي إلي لأني أحبها، وأرغب بها، وليس لأن زواجنا أبيض أو لأني جائع جنسيا.

أنا لا أضرب أطفالا، ولا أصطاد سمكا أو غزلانا أو أيائل. ولكني أجيد وأعشق تصويب فوهة بندقيتي باتجاه الظلام.

لا ألعب البريدج، ولا أقيم حفلات حتى أنشر أفكاري، فإذا ما كانت أفكاري صحيحة، فإنها ستنتشر من تلقاء نفسها.

و لا أضع عملي تحت إشراف رئيس الأطباء إذا لم تكن له معرفة أفضل مني بهذا العمل. وأنا الذي يحدد من يشرف على اكتشافاتي ومن ليس له حق ذلك.

إنني أتبع، وبدقة كل الأحكام القانونية إذا كانت عقلانية، أحاربها إن كان الزمن قد تجاوزها أو كانت مجردة من كل

معنى. (لا تعدو باتجاه المحامي، أيها الرجل الصغير! إنه يفعل نفس الشيء إذا كان رجلا محترما)

أريد من الأطفال، والشبان أن يعيشوا حبهم الجسدي، وأن يتمتعوا به بعيدا عن كل منغص.

لا أظن بأن الإنسان يكون متدينا بالطريقة الصحيحة، إذا ما عمد إلى تحطيم حبه للحياة، وتجزيئها إلى جسد وروح، إذا ما تركها تنكمش أو تتعفن.

أعرف أن ما تسميه إلهاً موجود فعلا، ولكن ليس كما تظن: إنه موجود كطاقة كونية في الفضاء، مثل حب في جسدك، مثل استقامتك، ومثل شعورك بالطبيعة في داخلك وخارجك.

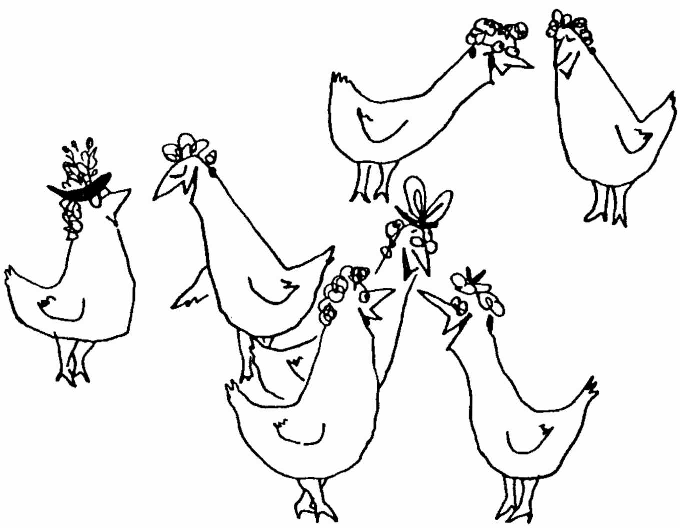
وسأطرد من منزلي كل من يريد عبر أعذاره الواهية أن يصدني عن أعمالي الطبية أو التربوية بحق المرضى والأطفال. وسأطرح عليه أمام أي محكمة، أسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها، دون أن يشعر بالخجل طوال حياته. ذلك أني رجل عامل، يعرف من يكون الإنسان في عمقه، يعرف من هو، وأنه يريد أن يحكم العمل العالم، وليس الرأي حول العمل. إن لي رأيي الخاص بي، أستطيع أن أميز الكذب من الحقيقة، هذه الحقيقة التي أستعملها كل يوم، وكل ساعة مثل آلة، وأعمد إلى تنظيفها بعد الانتهاء من العمل.

إنني أشعر بالخوف منك أيها الرجل الصغير، خوفا عميقا،

جامحا. لم يكن الأمر دائما هكذا، أنا أيضاً كنت رجلا صغيرا بين ملايين الرجال الصغار. ثم صرت باحثا علميا وطبيبا روحيا، فأصبح بامكاني رؤية كم أنت مريض، وكم يشتد خطرك حين تكون مريضا. ولقد تعلمت أن أرى، أن مرضك الروحي الخطير هو ذلك، وليس العنف الوحشي الذي يقمعك يوميا وفي كل ساعة، حتى في غياب الإكراهات الخارجية. لقد كان بإمكانك أن تنتصر على جلاديك، لو أنك كنت في عمقك حيا، ومعافى. إن جلاديك ينحدرون من صفوفك في الحاضر، كما كانوا ينحدرون في الماضي من الطبقات الراقية في المجتمع. انهم أصغر منك، أيها الرجل الصغير.

إنك لا تستطيع أن تحس أو ترى الرجل الكبير. جوهره، ألمه، توقه، ثورته، نضاله من أجلك، هم بالنسبة لك أشياء غريبة. ولا تستطيع أن تفهم أن هناك رجالا ونساء غير قادرين على قمعك واستغلالك. رجال ونساء يريدونك حرا. انك لا تحب هؤلاء الرجال والنساء لأنهم غرباء عن جوهرك. إنهم بسطاء، ومستقيمون. الحقيقة تمثل بالنسبة لهم، ما يمثله تكتيك الحياة بالنسبة لك. انهم ينظرون إليك، ليس باستهزاء، ولكن بأسى على المصير الإنساني، ولكنك تحس بنفسك مراقبا، وتشعر بخطر يتهددك. انك تعترف بهم أيها الرجل الصغير، فقط إذا ما قال لك العديد من الرجال الصغار انهم

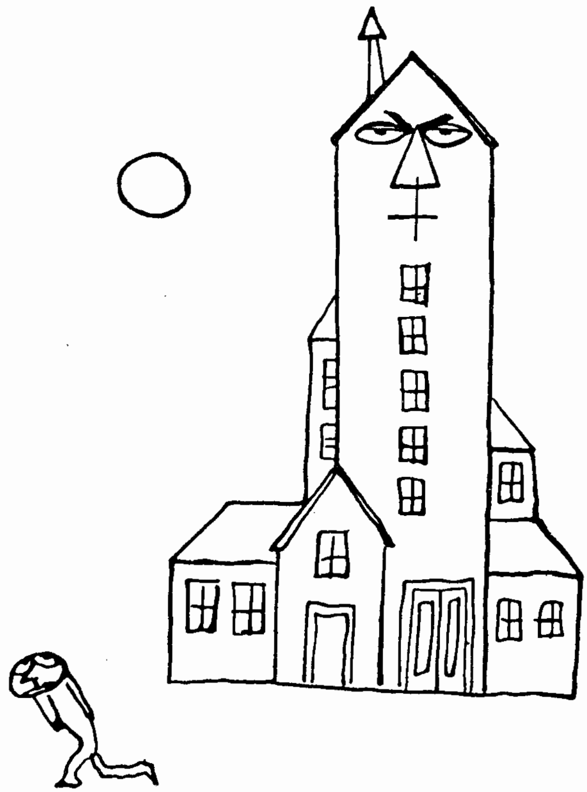
رجال كبار. أنت تشعر بالخوف من الرجل الكبير، من قربه من الحياة، وحبه لها. والرجل الكبير يحبك ببساطة كحيوان حي، ككائن حي. إنه لا يريد أن يراك تتألم، كما تألمت منذ آلاف السنين، ولا يريد أن يسمعك تتحدث في غباء كما تفعل منذ آلاف السنين. إنه لا يريد أن يعيشك كحيوان عامل، لأنه يحب الحياة ولأنه يريد من الحياة أن تكون خالية من الآلام، والإهانة.



إنك تدفع بالرجل الكبير فعلا إلى احتقارك، وإلى الاختباء، والألم يعصر صدره منك، ومن صغارك، إنك تدفع به إلى تجنبك، والأسوأ من كل هذا، إلى الإشفاق عليك. لو كنت أيها الرجل الصغير مثلا عالما نفسيا، فلنقل لومبروزو، فإنك ستصم الرجل الكبير بكلمة مجرم أو مجرم فاشل أو مريض عقلي. ذلك لأن الرجل الكبير لا يعتبر هدف حياته هو أن يصبح غنيا أو أن يحقق زواجا مناسبا لبناته، أو نجاحا سياسيا، أو زينة بروفيسورية. إنك تسميه لذلك السبب "عبقريا" أو "غريب الأطوار" لأنه ليس مثلك. أما هو فمستعد أن يصرح بأنه ليس عبقريا، وأنه ليس أكثر من كائن حي. تسميه غير اجتماعي، إذا ما اختار الانزواء رفقة أفكاره، بدل إنفاق الوقت في الثرثرة الفارغة لمجتمعاتك. تسميه أحمقَ إذا ما أنفق ماله على البحث العلمي، بدل أن يراكمه أسهما. وأنت تقدم، أيها الرجل الصغير، في انحطاطك البعيد الغور على اعتبار الرجل البسيط، المستقيم، رجلا غير طبيعي. إنك تقيسه بمقاييسك الصغيرة، لتخلص إلى أنه لا تتوفر فيه شروط الرجل الطبيعي. إنك لا ترى، وترفض أيها الرجل الصغير معرفة أنك تطرده، هو الممتلئ بالحب، والمستعد دوما لتقديم يد المساعدة إليك. تعتبره ثقيل الظل، سواء بملهى داعر أو بقاعة الاحتفالات. ما الذي جعله يبدو كما لو أنه خارج من عقود طويلة من الألم؟ أنت

الذي جعلته كذلك، بفعل غياب ضميرك، ضيق أفقك، تفكيرك الخاطئ، ووثوقيتك الدينية التي لا تستطيع أن تصمد أمام عقد من التطور الاجتماعي. فلتفكر إذن، ما الذي زعمت، أقسمت على القيام به بين الحرب العالمية الأولى والثانية. كم تراجعت عن كل تلك القرارات والوعود التي ضربتها؟ لا شيء، أيها الرجل الصغير! ولكن الرجل الكبير حقا يفكر بانتباه، ولكن بعيدا داخل الزمن، إذا ما أمسك بفكرة معينة. أنت أيها الرجل الصغير، الذي يجعل من الرجل الكبير منبوذا، متى كانت أفكاره صحيحة، وبعيدة المدى، وكانت أفكارك صغيرة وقصيرة المدى. وحين تصنع منه منبوذا، تزرع بداخله البذرة المخيفة للعزلة. ليس بذرة العزلة التي تخلق الأشياء الكبيرة، ما أعنيه بذلك هو بذرة الخوف من أن تعجز عن فهمه، وان تسيء معاملته. ذلك لأنك "الشعب"، "الرأي العام"، "الضمير الاجتماعي". هل فكرت في ذلك مرة بجدية، أية مسؤولية كبيرة تنطوي عليها هذه الكلمات؟ وهل طرحت على نفسك يوما السؤال (ولتكن صادقا!) ما إذا كنت، منظورا إليك من وجهة نظر الزمن الاجتماعي، أو الطبيعة، أو الأعمال الكبيرة لرجل مثل المسيح، تفكر بطريقة صحيحة أم خاطئة؟ لم تسأل نفسك إن كنت تفكر بطريقة خاطئة، بل سألت نفسك فقط ماذا سيقول جارك حول ذلك، وإذا ما كان صدقك سيكلفك مالا. هذه هي

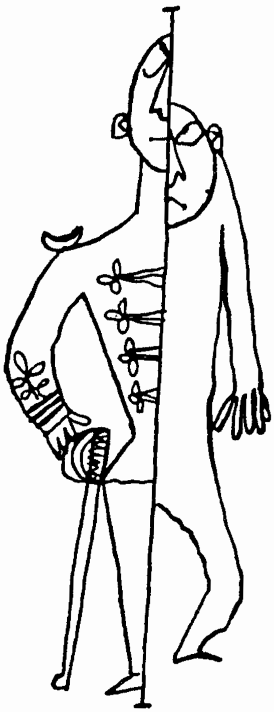
الأسئلة التي طرحتها على نفسك أيها الرجل الصغير.



بعدما دفعت بالرجل الكبير إلى العزلة، نسيت ما اقترفت بحقه. نطقت مرة أخرى بتفاهة، واقترفت مرة أخرى نذالة صغيرة، مرة أخرى جرحته في العمق. نسيت. ولكنه من جوهر الإنسان الكبير ألا ينسى، ألا يحاول الانتقام منك، ولكن

أن يفهم لماذا تتصرف بضعة. حتى هذا هو بالنسبة لك شيء غريب، أعرف. ولكن صدقني: حين تبذر الألم مئات، آلاف، ملايين المرات، حين تنسى بعد لحظة من اقترافك لعمل مشين، ما اقترفت يمينك، الرجل الكبير يتألم مكانك بسبب أعمالك الشائنة، ليس لأنها كبيرة، ولكن لأنها صغيرة. إنه يريد أن يفهم أية غرائز تدفع بك إلى تدنيس زوجك، إذا ما خيبت أملك. إلى تعذيب طفلك، إذا لم يحببه جارك السيئ، إلى خداع صديقك، إلى النظر باستهزاء إلى الرجل الطيب، واستغلاله حتى آخر قطرة، إلى الركوع أمام السوط، إلى أن تأخذ حيث يتوجب عليك أن تعطي، وأن تعطي حيث يطلب منك ذلك، ولكن أبدا لن تعطي عن طيبة خاطر، ولن تمنح فرصة أخري للذين خذلتهم الأيام، إلى الكذب حيث الحقيقة، واتباع الكذب بدل الحقيقة. انك دائما إلى جانب المضطهد، أيها الرجل الصغير.

ولكي يحظى بودك، أيها الرجل الصغير، لكي يكسب صداقتك العديمة القيمة، وجب على الرجل الكبير أن يتكيف معك، أن يصدقك القول، وأن يتزين بأخلاقك. ولكنه لم يكن ليكون كبيرا، وصادقا، وبسيطا، إذا ما كانت له نفس أخلاقك، ولغتك، وصداقتك! وبإمكانك أن تقنع نفسك بسهولة، بأن أصدقاءك الذين يصدقونك القول، لم يكونوا قط رجالا كبارا: وسأثبت ما قلته اللحظة. انك لا تعتقد بأن صديقك قادر على



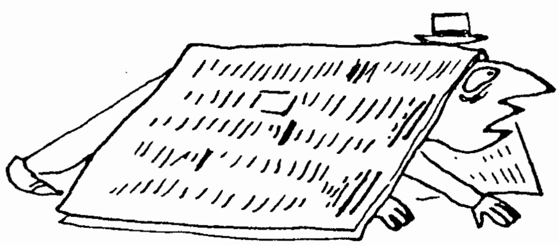
القيام بعمل كبير. انك تحتقر نفسك في السر، وأيضا، وخاصة حين تظهر اعتزازا بنفسك. ولأنك تحتقر نفسك، فانه لا يمكنك أن تحترم صديقك، ولا يمكنك أن تعتقد بأن أيا كان، ممن تجلس معهم إلى نفس الطاولة أو تسكن معهم في نفس البيت، بإمكانه أن ينجز عملا كبيرا. لهذا السبب ركن كل

الرجال الكبار إلى العزلة. فبقربك لا يمكنهم التفكير بطريقة جيدة. فقط حولك وليس معك، يمكن التفكير، ذلك لأنك تخنق كل فكرة كبيرة وبعيدة. كأم تقول لطفلك المتفكر: "هذا ليس للأطفال!" وكأستاذ للبيولوجيا تقول: "هذا ليس للطلبة المحترمين! الشك؟ الشك بالبذور في الهواء؟" وكمعلم تقول: "على الأطفال أن يظلوا صامتين ولطيفين، وألا يكونوا



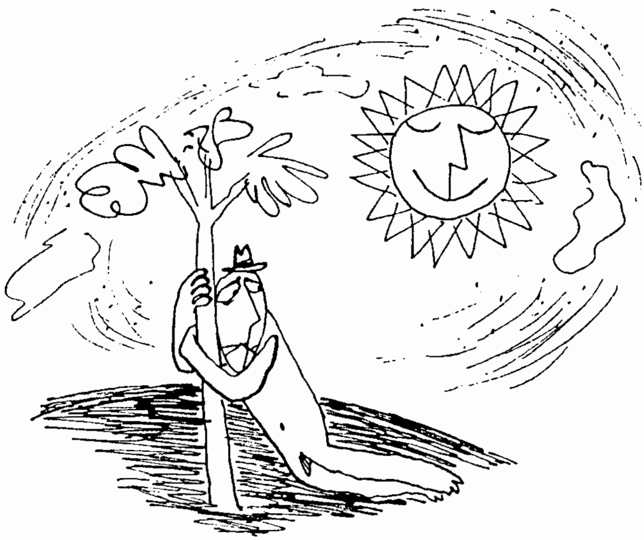
مأخوذين بحب الاستطلاع". وكزوجة، أسمعك تقول: "اكتشاف! أتقول أنك قمت باكتشاف؟ لماذا لا تذهب في هدوء إلى المكتب، حتى تضمن لقمة العيش لأسرتك؟" ولكن إذا ما نشرت الجريدة خبر ذلك، فإنك تعتقد به أيها الرجل الصغير، سواء فهمت ذلك أو لم تفهمه.

إنني أقول لك، أيها الرجل الصغير: لقد فقدت كل توق إلى الأفضل بداخلك. لقد خنقت ذلك التوق، وأنت تقتله كلما اكتشفته بالآخرين، بأطفالك، زوجتك، زوجك، أبيك وأمك. فأنت صغير، وتحب أن تظل صغيرا، أيها الرجل الصغير.



وتسأل: من أين لي بمعرفة ذلك؟ إنني أريد أن أقول لك ذلك: لقد عايشتك، عشت معك، وعشتك بداخلي، وكطبيب حررتك

من صغائرك، وكمرب قدتك كثيرا عبر طريق الاستقامة، والتفتح. أعرف كيف تقاوم بشدة الاستقامة، وأي خوف قاتل يداهمك إذا ما توجب عليك أن تتبع جوهرك الحقيقي.



لست فقط صغيرا أيها الرجل الصغير. أعرف أنك عشت لحظاتك الكبيرة أيضا. أنت تعرف الارتقاء والسمو، ولكنك لا تملك طول النفس لكي تحافظ على ارتقائك وتستمر في سموك. فأنت تخاف من الارتقاء وتخاف القمة والعمق. لقد بين نيتشه لك ذلك أفضل مني، غير أنه لم يقل لك لماذا أنت على تلك الحال. لقد أراد أن يصنع منك إنسانا أعلى، حتى تتجاوز الإنسان بداخلك. إنسانه الأعلى تحول إلى "الزعيم

هتلر" وأنت ظللت أسفل سافلين.

إنني أريدك أن تتوقف عن الوجود كرجل صغير، أن تصبح أنت. أقول لك: أن تصبح أنت! وليس كما تريدك الجريدة التي تقرؤها أو جارك السيئ الذي تصغي إليه، ولكن أن تكون أنت. أعرف، ولكنك لا تعرف كم أنت عميق في الواقع. عميق مثل آيل، مثل إلهك، وشاعرك، ورجلك الحكيم. ولكنك تعتقد بأنك عضو بجمعية قدماء المحاربين، وبنادي لعبة البولنغ Ku Klux-Klans. ولأنك تعتقد بذلك، فإنك تتصرف كما تتصرف الآن. وحتى هذا، فقد قاله لك هاينريش مان قبل ٢٥ عاما وآبتون سانكلير ودوس باسوس في أمريكا. ولكنك لم تعرف مان ولا سانكلير. تعرف فقط ملك الملاكمة، وآل كابون. وإذا ما خيرت بين الذهاب إلى المكتبة أو التفرج على مشاجرة، فانك ستختار بلا شك التفرج على المشاجرة.

إنك تتسول السعادة في الحياة، ولكن الأمن أهم بالنسبة لك، حتى لو كلفك ذلك عمودك الفقري، حتى لو كلفك حياتك كلها. ولأنك لم تتعلم يوما كيف تخلق السعادة، كيف تتمتع بها، وكيف تحافظ عليها، لا تعرف شجاعة الصمود. إنك تريد أن تعرف أيها الرجل الصغير من تكون؟ إنك تصغي إلى إعلانات المسهلات أو معجون الأسنان أو دهان الأحذية أو مبيد الروائح الكريهة في الراديو. ولكنك لا تسمع موسيقى البروباغندا. إنك لا تعي عمق غبائك، وقلة الذوق المقيتة للطنين

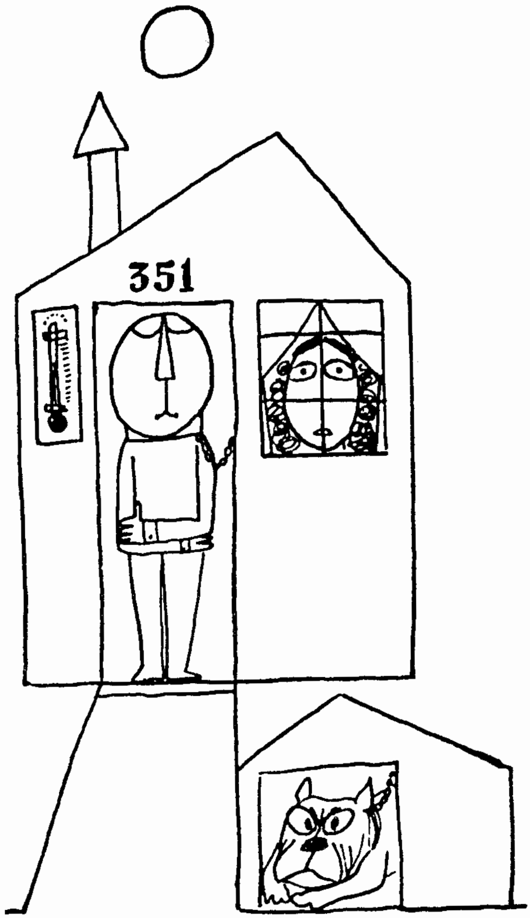
المغري، المرتب من أجل اصطياد أذنك. هل أصغيت يوما بانتباه إلى النكتة التي قالها المهرج في الكباريه بحقك؟ قالها بحقك، وبحق نفسه، وبحق عالمك البائس، الصغير كله. أصغ إلى بروبغندا المسهلات، وستدرك من وكيف أنت.

إصغ، أيها الرجل الصغير: بؤس الوجود الإنساني يفصح عن نفسه في كل واحد من آثامك الصغيرة. وكل صغيرة من صغائرك، تجعل من الأمل في الرقي بمصيرك يغرق في طريق عميقة. إن هذا لباعث على الحزن، أيها الرجل الصغير، على الحزن العميق، الذي يمزق شرايين القلب. وحتى لا تحس بهذا الحزن، فإنك تعمد إلى تأليف نكات غبية، وتسميها "دعابة شعبية".

إنك تسمع النكتة بحقك، وتضحك بحرارة. إنك لا تضحك، لأنك تسخر من نفسك في دعابة. إنك تضحك على الرجل الصغير، لكنك لا تشعر أنك تضحك على نفسك، إنهم يضحكون عليك. وملايين الناس لا يعرفون أنهم يضحكون عليهم.

لماذا يضحك المرء عليك أيها الرجل الصغير بهذه الحرارة والجرأة، وبشماتة وطوال كل هذه القرون؟ هل لفت نظرك كيف تصور الأفلام الشعب بطريقة مضحكة؟

أريد أن أقول لك أيها الرجل الصغير، لماذا يضحك المرء عليك، ذلك أني أنظر إليك بجدية، بجدية كبيرة!




إنك تخطئ دائما التفكير وبشكل حتمي كلما فكرت بالحقيقي والجوهري، مثل رجل خبيث يصوب دائما بالذخيرة الحية وبطريقة خاطئة نحو الهدف.

أتنكر أنك تفعل ذلك؟ سأقدم لك الدليل: كان بإمكانك أن تكون منذ زمن بعيد سيد وجودك، لو أنك فكرت بعمق في الحقيقة. ولكنك تفكر بهذه الطريقة: "إن اليهود هم سبب كل هذا" "ماذا يعني يهودي؟" أسألك. "إنسان دمه يهودي" هذا هو جوابك. "كيف تميز الدم اليهودي عن أنواع الدم الأخرى؟" السؤال يصيبك بالحيرة. تتردد، تتبلبل أفكارك، وتجيب: "أعني بذلك العِرق اليهودي". "ما العرق؟" أسال. "العرق؟ إنه شيء واضح! فكما أن هناك عرق ألماني، هناك أيضاً عرق يهودي". "أية مميزات للعرق اليهودي؟" اليهودي أسود، له أنف طويل، معوج، وعيون حادة. اليهود بهم جشع إلى المال،



ورأسماليون. "هل رأيت يوما فرنسيا من جنوب فرنسا أو إيطاليا برفقة يهودي؟ هل يمكنك التفريق بينهم؟" "لا.. في

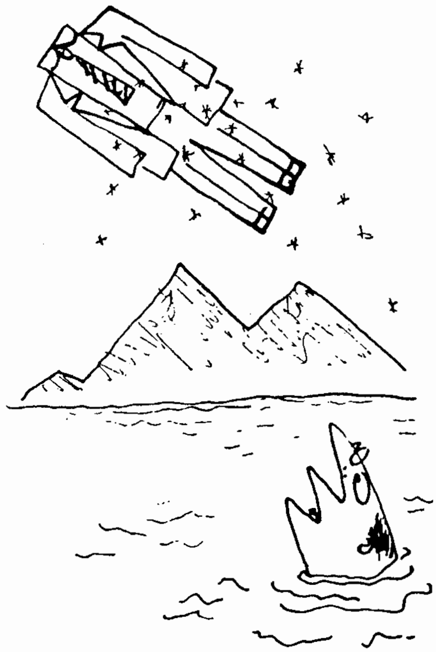
الواقع لا.." "ماذا يعني إذن اليهودي؟ دمه لا يختلف عن أنواع الدم البشرية الأخرى" في صورته الخارجية لا يختلف في شيء عن الفرنسي أو الإيطالي. وهل رأيت يوما يهوديا ألمانيا؟ "انهم يشبهون الألمان" "ومن هو الألماني؟". "الألماني ينتمي إلى العرق الآري، الشمالي." "هل الهنود آريون؟" أجل. "هل هم من الشمال؟"، لا. "هل هم بيض؟"، لا. "أرأيت إذن، أنت لا تعرف من يكون الألماني، ومن يكون اليهودي؟" ولكن هناك يهود! طبعا يوجد يهود، كما يوجد مسيحيون، ومسلمون. "أعني الديانة اليهودية". "هل كان روزفلت هولنديا؟" لا. لماذا تسمي سليل داوود يهوديا، إذا لم تكن تسمي روزفلت هولنديا؟ "مع اليهود يختلف الأمر!". "لماذا يختلف الأمر؟". "لا أدري".

هكذا تهذي، أيها الرجل الصغير. ومن هذيانك هذا تكونت جماعات مسلحة، وهذه الجماعات المسلحة قتلت عشرة ملايين من البشر لأنهم يهود، في نفس الوقت الذي لا تستطيع فيه أن تجيب عن السؤال: ماذا تعني كلمة يهودي؟ لهذا السبب يضحك المرء عليك، يتجنبك المرء إذا ما كانت له أشياء جدية يقوم بها، ولهذا السبب يتعفر وجهك بالتراب. حين تنطق كلمة يهودي تشعر بالفخار، لأنك في العمق تشعر بنفسك بائسا. تشعر بذلك لأنك تقتل نفسك في اليهودي. إن هذه قطعة

صغيرة من الحقيقة حولك، أيها الرجل الصغير.

إنك تحس بصغائرك صغيرة، حين تنطق في ازدراء أو تعجرف بكلمة "يهودي". لقد اكتشفت ذلك منذ وقت قصير فقط. إنك تسمي "يهودي" كل من يبعث في نفسك القليل أو الكثير من الاحترام. وتريد بكل استبدادية، كما لو أنك مبعوث قوة سماوية إلى الأرض، أن تحدد من هو "اليهودي". لكني أحرمك هذا الحق، أيها الآري أو اليهودي الصغير. فأنا الوحيد في هذا العالم من له الحق أن يحدد من أنا، ولا شخص آخر. أنا خليط بيولوجي وثقافي، وأنا جد فخور أن أكون العصارة الثقافية والجسدية لكل الطبقات، والأعراق، والقوميات، ولست صافي العرق مثلك أو صافي الطبقة مثلك أو شوفينيا مثلك، أيها الفاشي الصغير، فاشي كل الطبقات، والقوميات، والأعراق. سمعت أنك رفضت تقنيا يهوديا بفلسطين لأنه لم يكن مختونا. أنا أيضاً لا أشترك مع الفاشيين اليهود في شيء، لا شيء يجمعني بهم. لا يحركني أي إحساس إزاء اللغة اليهودية أو الدين اليهودي أو الثقافة اليهودية. إنني لا أعتقد بالإله اليهودي، كما لا أعتقد بالإله المسيحي أو الهندوسي، ولكني أعي من أين تستمد إلهك. إني لا أعتقد بأن الشعب اليهودي هو شعب الله «الوحيد» أو «المختار».

أعتقد بأن الشعب اليهودي سيضيع يوما في الجماعات البشرية الموجودة على هذه الأرض، وذلك من أجل نموه الخاص ونمو أحفاده. إنك لا تحب سماع مثل هذه الأشياء،



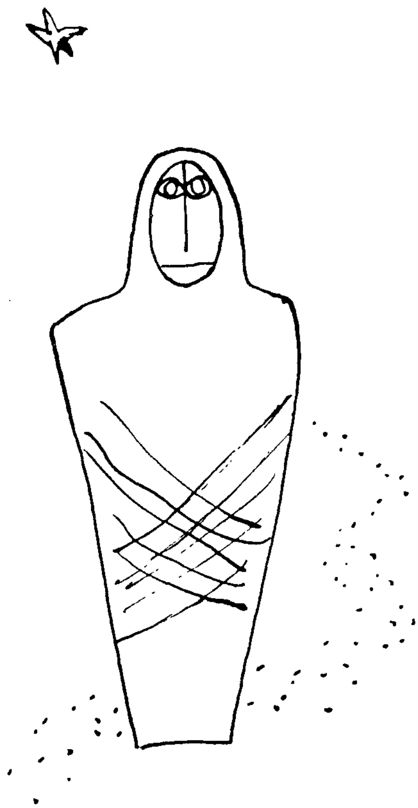
أيها الرجل اليهودي الصغير، لأنك تعتز كثيرا بيهوديتك، ولأنك تحتقر نفسك كيهودي، وكل من هو قريب منك. أكثر

الناس عداء لليهود، هو اليهودي نفسه، كما تقول حكمة قديمة. لكني لا أحتقرك، ولا أكرهك. لا شيء يجمعني بك، أكثر مما يجمع بين صيني وعرسة في أمريكا: الأصل الواحد الذي هو الكون. لماذا تعود بأصلك إذن إلى سام فقط، وليس إلى البروتوبلازما، أيها اليهودي الصغير؟ بالنسبة لي تبدأ الحياة بتشنج البلازما، وليس بأحبارك.

ولقد استدعى الأمر ملايين السنوات حتى تتطور من رئة البحر إلى كائن يمشي على قدمين. وستة آلاف سنة استمر تحول حياتك في تصلب جسدي. وسيستمر الأمر قرنا أو خمسة قرون أو خمسة آلاف سنة حتى تتعرف من جديد على طبيعتك، حتى تكتشف رئة البحر بداخلك.

لقد اكتشفت رئة البحر بداخلك، ووضعتها لك في لغة واضحة. لما سمعت ذلك لأول مرة، سميتني عبقريا. أما زلت تتذكر، لقد كان ذلك بالبلاد الاسكندنافية، لما كنت تبحث عن لينين جديد. أما أنا فقد كان لي عمل أهم من ذلك، فرفضت. لقد نصبتني أيضاً كداروين جديد أو ماركس أو باستور أو فرويد. وفي ذلك الوقت قلت لك، بأنك أيضاً تستطيع الكلام، والكتابة مثلي، إذا ما توقفت عن الصراخ: نعم.. نعم.. نعم... لأن هذا الصراخ ينوم عقلك، ويشل طبيعتك الخلاقة.

ألا تطارد الأم غير المتزوجة كجوهر لا أخلاقي، أينما



وجدتها أيها الرجل الصغير؟ ألا تفرق بحدة بين أطفال الزواج ومن تسميهم بالأطفال "غير الشرعيين"؟ آه، إن مظهرك مدعاة للرثاء في هذا الكوكب البائس! إنك لا تفهم حتى معنى الكلمات

التي تنبس بها . إنك تقدس الطفل يسوع. لكن الطفل يسوع هو وليد امرأة لم تملك وثيقة زواج. وهكذا أنت تقدس، دون أن تشعر بذلك، في الطفل يسوع توقك إلى الحرية الجنسية، أيها الرجل الصغير! لقد جعلت من يسوع المسيح، الذي ولد بدون زواج، ابنا للرب، الذي لم يعرف قط أطفالا بدون زواج. ولكنك في واقع المتوحش، والصغير، وهذه المرة كالحواري بولس، طاردت أطفال الحب الحقيقي واستبدلتهم بأطفال الحقد، وحميتهم بقوانينك الدينية. يا لك من رجل صغير، وبائس!

إنك تقطع بسيارتك القناطر التي فكر بها غاليلي العظيم. ولكن أتعرف أيها الرجل الصغير، إن غاليلي العظيم كان له ثلاثة أطفال بدون وثيقة زواج؟ إنك لا تقول ذلك لأطفالك بالمدرسة! ألا تعذب بهذه الطريقة غاليلي؟

أتعرف أيها الرجل الصغير في وطن كل الشعوب السلافية، بأن زعيمك لينين، الأب الأكبر لبروليتاريا كل الأوطان (أو كل السلافيين) قد أبطل الزواج القهري لما اعتلى سدة الحكم، وأنه نفسه قد عاش دون وثيقة زواج مع امرأة؟ ألم تسكت عن ذلك أيها الرجل الصغير؟ أو لم تعمد إلى تطبيق قانون الزواج القهري مرة أخرى، لأنك لم تعرف كيف تعيش عمل لينين العظيم؟

إنك لا تعرف شيئا عن الحقيقة، التاريخ، النضال من أجل

حريتك، ومن تكون أنت حتى يكون لك رأيك الخاص بك.؟ كما أنك لا تفهم بأن خيالك المتسخ، ولامسؤوليتك الجنسية هما من دفعا بك إلى براثن قانون الزاوج.

كنت أقول، أنك تحس بنفسك بئيسا وصغيرا، نتنا، وممزق الروح، عاجزا، يابسا، متجمدا، وفارغا. ليس لك امرأة. وإذا ما حصلت على واحدة، تريد فقط مضاجعتها لكي تبرهن على ذكورتك. لا تعرف معنى الحب. فأنت مغلق، تتعاطى المسهلات، وتفوح منك رائحة كريهة. جلدك متصلب أو غير ناضج. لا تحس بطفلك بين يديك، لذلك تريد أن تصنع منه كلبا وأنت توسعه ضربا.

طوال حياتك تعذبت بسبب عجزك الجنسي. إنه يتسلل إلى كل أفكارك، ويقلقك أثناء عملك. زوجتك تهرب منك، لأنك لا تستطيع أن تقدم لها حبا. وأنت تتألم بسبب أمراضك وعصبيتك. أفكارك لا يمكنها التحرر من الجنس. أحدهم حدثك عن علم اقتصاد الجنس، هذه النظرية التي أدركت طبيعتك، وأرادت التخفيف من معاناتك. أردت بذلك أن أساعدك على أن تحيا حياتك الجنسية بالليل، حتى تقوم بعملك نهارا، حرا من كل الهواجس الجنسية. أردت بذلك أن تشعر زوجتك وهي بين أحضانك بالسعادة لا بالشك. أن يكون أطفالك سعداء، لا شاحبي الوجوه أو متوحشين. لكنك

تقول: "الجنس ليس كل شيء في الحياة. إن هناك أشياء أخرى مهمة". هكذا أنت، أيها الرجل الصغير. أم أنك "ماركسي"، "موظف ثوري"، زعيم مستقبلي لبروليتاريا كل البلدان والقوميات. أب مستقبلي لبلد من البلدان السوفياتية، تريد تحرير العالم من ألمه. الجماهير تهرب منك، وأنت تعدو خلفها صائحا: قفي، قفي أيتها الجماهير البروليتارية! ألا ترين بأني محررك. ألا تريدين معرفة ذلك؟ لتسقط الرأسمالية! إنني أبعث الحياة بجماهيرك، أيها الثوري الصغير، وأفضح بؤس حياتها. إنها تصغي إلى كلماتي، وتتوهج من الفرحة والأمل. إنها تعدو إلى جمعياتك، ظنا منها أنها ستجدني هناك. وأنت، ماذا تفعل؟ "الجنس مرض البورجوازية الصغيرة" أليس هذا ما تقوله؟ "العوامل الاقتصادية هي كل شيء". ومع ذلك فإنك تقرأ كتاب فان دو فلدس حول تقنية الجنس.

ولما حاول رجل كبير تحقيق تحررك الاقتصادي، تركته يجوع. إنك تقتل كل هجوم للحقيقة على انحرافك عن قوانين الحياة. ولما استطاع هذا الهجوم أن يفرض نفسه، تسلمت إدارته، وقتلته مرة أخرى. في المرة الأولى حل الرجل الكبير جمعيتك. في المرة الثانية كان قد مات، ولم يستطع أن يقوم بشيء ضدك. إنك لا تفهم أنه وجد في عملك مبادئ قوة الحياة



الخلاقة. لم تفهم بأن مبادئه الاجتماعية كانت تبغي حماية مجتمعك من دولتك. إنك لا تفهم شيئا!

الرجل الكبير عمل طوال حياته، وحتى أنفاسه الأخيرة، حتى يعلمك بأن عليك أن تطور اقتصادك إذا ما أردت التمتع بحياتك، وبأن الناس الجوعى لا يمكنهم تطوير الثقافة، وبأن كل عوامل الحياة ضرورية وليس فقط العوامل الاقتصادية. وبأن عليك أن تحمي نفسك ومجتمعك من الطغيان. لكن الرجل الكبير ارتكب خطأ واحدا فقط، لقد كان يعتقد بقدرتك على تحرير نفسك. ولم يشك بقدرتك على حماية حريتك متى حصلت عليها. كما أنه ارتكب خطأ آخر حين أراد أن يجعل من البروليتاري ديكتاتورا.

وأنت أيها الرجل الصغير، ماذا صنعت بكل هذا الغنى الفكري، غنى هذا الرجل الكبير؟ بأذنيك ترن، من كل هذا الامتداد والعلو الذي أظهره لك، كلمة واحدة: الديكتاتورية! من كل غنى هذا الرجل العظيم، ومن حرارة قلبه... تبقت كلمة واحدة: الديكتاتورية! كل الأشياء الأخرى طرحتها جانبا: الحرية، الشفافية حين يتعلق الأمر بالحقيقة، القضاء على العبودية الاقتصادية، ضرورة الاستمرار بتطوير المنهجية، كلها أشياء ألقيت بها جانبا. كلمة واحدة فقط، ظلت عالقة بك: الديكتاتورية!

وبسبب هذا الخطأ الصغير في التعبير (الديكتاتورية) صنعت نظاما عملاقا من الكذب، المطاردة، التعذيب، السجن، الجلد، البوليس السري، والتجسس، الغرور، وسلاطة اللسان، الزي الموحد، المارشالات والأوسمة... ولكن كل الأشياء الأخرى طرحتها جانبا. هل فهمت الآن ولو قليلا، من تكون أيها الرجل الصغير؟ ليس بعد؟ إذن فلنحاول مرة أخرى: "الشروط الاقتصادية" التي تضمن حياتك وسعادتك استبدلتها "بالميكانيكية"، تحرر الإنسان "بعظمة الدولة"، الاستعداد للتضحية من أجل المثل الكبرى "بالتنظيم الحزبي" الأعمى، والغبي. يقظة الملايين، بالمارش العسكري للمدافع، حرية الحب، باغتصاب النساء أيام زحفك على ألمانيا، القضاء على الفقر، بالقضاء على الفقراء والضعفاء وقليلي الحيلة، الاعتناء بالرضع، بتربية المواطن، تنظيم النسل، بميداليات للأمهات ذوات الأطفال العشرة. ألم تعانِ نفسك من فكرة الأم ذات العشرة أطفال؟

الكلمة الصغيرة، والتعيسة: "ديكتاتورية" ترن بأذنيك في بلدان أخرى أيضا. إنك تلبسها زيا عسكريا براقا، وتصنع من وسطك ابن الموظف الصغير، العاجز، الواهم، السادي، الذي قادك في عهد الرايخ الثالث، وستين مليون من أمثالك إلى القبر. ومع ذلك فمازلت تصرخ بحياة الزعيم!

هكذا أنت أيها الرجل الصغير! لكن لا أحد امتلك شجاعة أن يقول لك من أنت! لأن المرء يخافك، ويريدك صغيرا، أيها الرجل الصغير.

إنك تلتهم سعادتك عن آخرها.

ولم يحدث لك يوما أن تمتعت بسعادتك في حرية. لذلك فأنت تلتهمها بجشع، وبدون إحساس بالمسؤولية. لم تتعلم قط أن تعتني بسعادتك، وتصونها كما يفعل البستاني بوروده والفلاح بقمحه. العلماء والشعراء والحكام الكبار يفرون منك، لأنهم يريدون الاعتناء بسعادتهم. بالقرب منك أيها الرجل الصغير، من السهل الإجهاز على السعادة، لكن من الصعب الاعتناء بها!

إنك لا تفهم ما أعنيه بكلامي، لكني أريد أن أوضح لك ذلك:

إن المكتشف يعمل بلا انقطاع، عشرة، عشرين أو ثلاثين سنة على عمله أو آلته أو فكرته الاجتماعية. إن عليه أن يحمل وحده على عاتقه مشروع التجديد الجبار. عليه أن يكابد لوحده أفكارك ومُثلك الخاطئة، أن يفهمها، وأن يحطمها، وأن يستبدلها بأعماله. لكنك لا تساعده في ذلك، أيها الرجل الصغير! بل إنك تقوم بالعكس! إنك لا تأتي لكي تقول: "صديقي، إنني أرى كيف تتحمل مشقة العمل لوحدك. أرى أيضاً كيف تعمل على آلتي، طفلي، زوجتي، صديقي، بيتي،

حقلي من أجل إصلاحهم. عانيت كثيرا من هذا أو ذاك، لكني لم أستطع أبدا مساعدة نفسي. هل أستطيع الآن مساعدتك على مساعدتي؟" لا، أيها الرجل الصغير، إنك لا تأتي قط إلى من يحاول مساعدتك، من أجل تقديم يد المساعدة. إنك تصرخ: نعم.. نعم.. نعم..، أو تلعب النرد أو تصرخ عند التشاجر أو تحفر عميقا في منجم الفحم. لكنك لا تأتي قط إلى من يحاول مساعدتك من أجل تقديم يد المساعدة. تسأل لم؟ أولا، لأن المكتشف ليس له ما يعطيك إياه غير أفكاره؛ لا ربحا، ولا أجرا كبيرا، ولا اتفاقية أجور، ولا هدايا بمناسبة رأس السنة، ولا طريقة حياة سهلة. إن له فقط مسؤوليات يوزعها، وأنت لا تريد تحمل المسؤولية.

لكنك تظل بعيدا، دون أن تقدم يد المساعدة. غير أن المكتشف لن يصبح تعيسا بسببك. إنه يفكر ويتحمل المشاق ويكتشف من أجلك. إنه يفعل كل ذلك، لأن الكائن الحي بداخله يدفعه لفعل ذلك. وهو يترك مهمة الاعتناء بك والرثاء لحالك لزعيم الحزب ورجال الكنيسة. إنه يريدك أن تتعلم أخيرا، كيف تعتني أنت بنفسك.

غير أنك لا تقنع فقط بعدم تقديم يد المساعدة، بل إنك تزعق وتبصق. وإذا ما حدث واكتشف العالم أخيرا، بعد عمل شاق ومضن، لماذا أنت عاجز عن إسعاد زوجتك، تحضر وتقول:

إنه خنزير جنسي. إنك لا تحس بأنك تقول ذلك، لأنك قمعت هذا الخنزير الجنسي بداخلك، ولذلك أصبحت عاجزا عن تقديم الحب. وإذا ما حدث واكتشف العالم، لماذا يموت الناس جماعات بسبب السرطان، وكنت، أنت أيها الرجل الصغير، صدفة بروفيسورا لأمراض السرطان وموظفا في مصحة للسرطان، فإنك تقول عنه، إنه نصاب أو لا يفهم شيئا عن البذور في الهواء أو أنه أنفق الكثير من المال على أبحاثه أو توصل بذلك المال هدية أو تسأل إن كان يهوديا أم أجنبيا أو تطالب بحقك في امتحانه، إذا ما كان يمتلك صلاحية العمل على مشكلة السرطان التي لا تريد لها حلا أو تترك الكثير من مرضى السرطان يموتون، بدل أن تعترف بأنه فهم ما تحتاج إليه من أجل إنقاذ مرضاك. بالنسبة لك، كرامة المهنة أو كيس المال أو علاقتك بمصنع إنتاج الراديوم أهم من الحقيقة والتعلم.

ولهذا السبب تظل صغيرا وبائسا، أيها الرجل الصغير.

إنك لا تكتفي فقط بعدم تقديم يد المساعدة، بل إنك تزعج في خبث، ما يتم إنجازه من أجلك ونيابة عنك. أتفهم الآن لماذا تهرب السعادة منك؟ إن السعادة تريد أن تتم دراستها بعمق، أن يتم تحقيقها! لكنك تريد فقط أن تفترسها، ولهذا السبب تهرب منك، ذلك أنها لا تريد أن تفترس من طرفك.



وقد يتمكن المكتشف أثناء ذلك، من إقناع الكثير من الناس بأن اكتشافه ذا قيمة عملية. قيمة قد تسمح بفهم أمراض روحية، أو أن ترفع حملا ما أو تعالج دماملَ أو تحطم صخورا

أو أن تطرد الظلام. سوف تعتقد بذلك فقط حين تقرأه بجريدة، ذلك أنك لا تثق بعينيك وحواسك. إنك تحترم من يسخر منك، أيها الرجل الصغير، وتسخر من نفسك، لذلك لا تثق بحواسك. وإذا ما تم نشر الاكتشاف بالجريدة، فإنك لا تأتي في خُطى عجلى، بل عدوا. إنك تعلن المكتشف "عبقريا"، نفس المكتشف الذي سميته قبل ذلك بوقت قصير، غشاشا وخنزيرا جنسيا ونصابا ومدمرا للأخلاق العامة، الآن أنت تسميه عبقريا. إنك لا تعرف معنى العبقرية، أيها الرجل الصغير. أعرف جهلك بذلك. كما أنك لا تعرف معنى كلمة "يهودي" أو "حقيقة" أو "سعادة". أريد أن أقول لك أيها الرجل الصغير، ما قاله لك يوما جاك لندن في:

Martin Eden

أعرف، لقد قرأت ذلك ملايين المرات، لكنك لم تفهمه!: العبقرية هي العلامة التجارية، التي تلصقها على ظهر منتوجاتك إذا ما بعثت بها إلى السوق للبيع.

و إذا ما كان المكتشف (الذي سميته قبل ذلك بزمن قصير خنزيرا جنسيا أو مريضا عقليا) "عبقريا"، فإنه بإمكانك أن تفترس السعادة التي قدمها للعالم بطريقة جيدة. أجل، بإمكانك التهامها، وبعد ذلك سيأتي الكثير من الرجال الصغار لسيصرخون: رائع، رائع. وسيأتي الناس زرافات



وسيفترسون منتوجاتك من يديك. إذا ما كنت طبيبا، سيأتي الكثير من المرضى، فأنت بإمكانك الآن مساعدتهم أفضل مما كانت عليه الحال في السابق. "ليس ذاك بعمل سيئ!" تقول الآن، أيها الرجل الصغير. لا، طبعا لا! أن تربح مالا بشرف وعن طريق العمل الجيد، ولكنه عمل سيئ أن تقدم شيئا من أرباحك للاكتشاف، أن تعمد فقط إلى استغلاله والاغتناء به. وهذا بالطبع، ما تقوم به. إنك لا تقوم بشيء من أجل السير بالاكتشاف إلى آفاق أبعد، بل تستعيره فقط بطريقة ميكانيكية، بدون تفكير وبنهم على المال، في غباء! إنك لا ترى إمكانيات هذا الاكتشاف، كما لا ترى حدوده. ويفشل عقلك في إدراك إمكانياته ويتجاوز ما هو ممكن حيث هي

حدوده. إذا ما كان التيفوس أو الكوليرا مرضا معديا، وكنت طبيبا أو عالم جراثيم، فإنه من اليقيني أنك ستبحث عن مهيج العدوى لمرض السرطان، وبذلك ستقبر ثلاثين سنة من البحث. وإذا ما كانت الآلات تخضع لقوانين معينة، وهذا ما كشفه لك رجل كبير يوما ما، فإنك تصنع الآلات لكي تقتل، وتعتبر الكائن الحي أيضاً مجرد آلة. هذه المرة، لم تخطئ الهدف في ثلاثة عقود، بل في ثلاثة قرون. تصورات خاطئة في مئات الآلاف من الأعمال العلمية تم إرساؤها، وفوق هذا كله تضررت منها الحياة البشرية بشدة، لأنك بسبب كرامتك، أو بروفيسورك أو ديانتك أو كيس نقودك أو دبابتك عمدت إلى مطاردة والافتراء على وقتل وتشويه سمعة كل من اكتشف ذلك، كل من أشار إلى الطريق الحقيقي نحو ما هو حي في الإنسان.

طبعا، طبعا، تريد أن يكون هناك عباقرة، وأنت مستعد لتقديسهم. لكنك تريد عباقرة طيبين، على مقاسك وغير مثيرين للقلاقل.. باختصار عبقري ملائم ومتكيف وليس متمردا وغير قابل للتدجين وثائر على كل قيودك وحواجزك... إنك تريده عبقريا محدودا، مختصرا، مشذبا، مرتبا، حتى تخرج به دون أن تحمر خجلا في موكب النصر إلى كل شوارع المدينة.

هكذا أنت أيها الرجل الصغير. باستطاعتك أن تستنزف، وتتعب، وتشرب، وتفترس، ولكن ليس باستطاعتك أن تخلق. ولهذا أنت كما أنت وحيث أنت، منفقا حياتك كلها في مكتب مقفر، أو منكبا على آلة الحساب أو لوحة الرسم أو سجين قميص الزواج أو معلما بمدرسة، يكره الأطفال. إنك غير قابل للتطور، غير قادر على اكتشاف فكرة، ذلك أنك تعلمت أن تأخذ فقط دون أن تعطي شيئا. لقد شربت فقط ما قدمه لك أحدهم جاهزا ونهائيا.

إنك لا تفهم لماذا هي الأمور على هذه الحال، ولماذا يجب أن تكون على هذه الحال؟ إنني أريد أن أقول لك ذلك، أيها الرجل الصغير، ذلك أني عرفتك حيوانا متجمدا، حين أتيت إلي بفراغك الداخلي أو عجزك الجنسي أو خبلك العقلي.

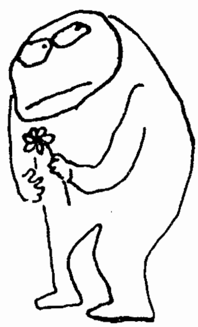
إنه بإمكانك فقط أن تشرب حتى آخر قطرة، وفقط أن تأخذ، ولا تستطيع أن تخلق أو تعطي شيئا، فجسدك وسلوكك وعنادك قائم على التحفظ. لأنك تصاب بالخوف، إذا ما استيقظت الحركة الأصلية للحب والعطاء بداخلك. لهذا أنت تشعر بالخوف من العطاء، واستهلاكك له في العمق معنى واحد: عليك أن تملأ جيوبك دائما بالمال، أن تفترس كل شيء، أن تسرق السعادة، وتحنط المعرفة، ذلك لأنك تشعر بالخواء، جائعا، وتعيسا، لا عارفا ولا راغبا في المعرفة.

لهذا السبب تهرب أيضاً من الحقيقة، أيها الرجل الصغير. ذلك لأنه بإمكان الحقيقة أن توقظ الإحساس بالحب في داخلك وبامكانها، بل لا شك في ذلك، أن تظهر لك القصور الذي أحاول إظهاره. لكنك لا تريد ذلك، أيها الرجل الصغير! تريد فقط أن تظل مستهلكا، ووطنيا.

"اسمعوا، اسمعوا! إنه ينكر الوطنية، حصن الدولة المنيع وخليتها التي هي العائلة! لا بد من القيام بشيء ضده!"

هكذا تصرخ أيها الرجل الصغير، إذا ما ذكرك المرء بانغلاقك الروحي. إنك لا تريد أن تعرف أو تسمع ذلك. تريد فقط أن تصرخ وتهتف. إني أتركك تصرخ، لكنك لا تتركني أقول لك لماذا أنت عاجز عن العيش في سعادة؟ إني أرى الخوف يشتعل في عينيك، ذلك أن سؤالي يصيبك في الصميم. أنت مع "التسامح الديني"، تريد أن تكون حرا وأن تحب ديانتك. إنه شيء جيد وجميل. لكنك تريد أكثر من ذلك. إنك تريد أن تقيم الصلاة فقط كما بينها دينك. إنك متسامح تجاه دينك ولكن ليس تجاه الديانات الأخرى. وتتحول إلى وحش إذا ما أراد أحدهم عبادة الطبيعة وليس إلها ما أو إذا ما أحب أحدهم الطبيعة وسعى إلى معرفتها. إنك لا تريد أن ترفع زوجة دعوى قضائية على زوجها وأن تتهمه بالفساد والعنف، إذا لم يحبذ العيش معها أكثر. الطلاق باتفاق

الطرفين، هذا شيء لا تعترف به، أيها السليل الصغير للمتمردين الكبار! ذلك أنك ترتجف أمام شهوتك! إنك تريد أن ترى الحقيقة في المرآة، حتى لا تستطيع الإمساك بها وحتى لا تستطيع الإمساك بك. شوفينيتك تنبع من تصلبك الجسدي والروحي، أيها الرجل الصغير. إني لا أقول لك ذلك لكي أسخر منك، بل لأني صديقك، حتى وإن كنت توسع أصدقاءك ضربا، إذا ما جهروا لك بالحقيقة. فلتنظر إلى وطنييك: إنهم لا يمشون بل يزحفون. إنهم لا يكرهون العدو، إن لهم أعداء لدودين، يغيرونهم عند كل عقد من الزمن، من أعداء لدودين

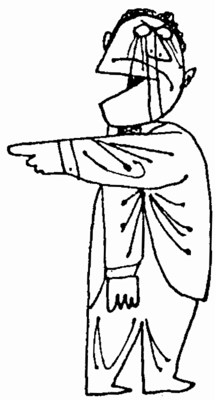


إلى أصدقاء ومن أصدقاء إلى أعداء. انهم لا يغنون، بل يزعقون بأناشيد المارش العسكري. إنهم لا يحضنون نساءهم، بل يغتصبونهم. إنك لا تستطيع شيئا أمام حقيقتي،

أيها الرجل الصغير. بإمكانك فقط أن تضربني، كما ضربت العديد من أصدقاءك الحقيقيين، أمثال المسيح وراتناو وكارل ليبكنشت ولنكولن وآخرين. إنك تسمي ذلك في اللغة الألمانية "قتل". في النهاية/ سيتم الإلقاء بك إلى قارعة الطريق، أيها الرجل الصغير ملايين المرات وسيدوسونك بالأقدام.

لكنك مازلت وطنيا وتريد أن تظل كذلك.

إنك تلهث خلف الحب. إنك تحب عملك وتعيش منه. وعملك يعيش من عملي ومن معارف الآخرين. الحب والعمل والمعرفة لا يعرفون أوطانا معينة أو حدودا جمركية أو قمصان عسكرية. إنهم عالميون، إنسانيون، شاملون. لكنك تريد أن تكون وطنيا صغيرا، لأنك تخاف من الحب الحقيقي، من مسئوليتك العملية، من المعرفة.



لذلك ليس بإمكانك سوى أن تستهلك حب، عمل ومعرفة

الآخرين، لكنك غير قادر قط على الخلق. لذلك تسرق سعادتك مثل لص في حلكة الليل وبسبب من ذلك لا تستطيع أن تحدق بالسعادة دون أن يتلون وجهك بالأصفر أو الأخضر.

"أوقفوا، أوقفوا اللص! إنه أجنبي، مهاجر، أما أنا فإني ألماني، أمريكي، دانمركي، نرويجي!".

آخ، لا ترغُ وتزبد، أيها الرجل الصغير! إنك ستظل المهاجر الأبدي. لقد هاجرت إلى هذا العالم صدفة وسوف تغادره من جديد في صمت. إنك تصرخ لأنك خائف خوفا جامحا. إنك تحس جسدك جامدا ويابسا، لذلك تصرخ وتنادي على البوليس. ولكن حتى بوليسك ليس له سلطة على حقيقتي. فشرطيك نفسه يأتي إلي، ليشكو إلي زوجته وأطفاله. إنه يخبئ الإنسان بداخله إذا ما حمل مسدسه وارتدى بدلته، لكنه لا يستطيع أن يخبئه في حضوري. ذلك أني رأيت شرطيك عاريا.

"هل هو مسجل في دائرة الشرطة؟ هل يمتلك أوراقا قانونية؟ هل دفع مستحقاته من الضرائب؟ يجب أن تفتشوا كيف يعيش. مصالح الدولة وشرف الأمة لا بد من حمايتها"

أجل، أيها الرجل الصغير، لقد كنت دائما مسجلا بطريقة قانونية ودفعت دائما ما توجب علي دفعه من الضرائب. إنك غير مهتم بالدولة وبالشرف القومي، إنك ترتجف خوفا، ذلك

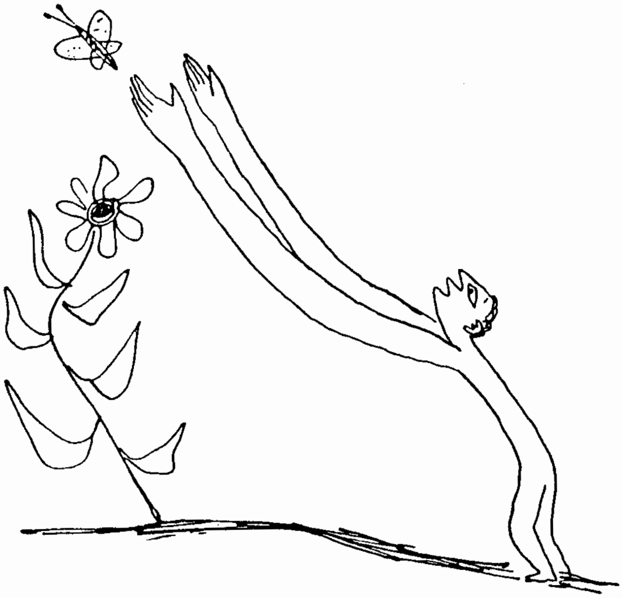
أنه باستطاعتي أن أفضحك، تماما كما رأيتك في عيادتي. لذلك تتحين الفرصة المناسبة، لكي تلصق بي تهمة خيانة الدولة وحتى ترمي بي سنوات إلى السجن. أعرفك أيها الرجل الصغير!

وإذا ما كنت صدفة محاميا، فانك لا ترى أن واجبك هو حماية القانون ولكنك تبحث عن قضية ترفعك إلى درجة رئيس النيابة. هذا ما يريد تحقيقه صغار المحامين على حسابك. وهكذا فعلوا في الماضي مع سقراط. لكنك لا تتعلم شيئا من التاريخ: لقد قتلت سقراط ولهذا السبب ما زلت غارقا في الوسخ. أجل، لأنك قتلت سقراط ولم تعرف بعد ذلك! لقد رفعت دعوى قضائية ضده، بدعوى الإخلال بأخلاقك الطيبة. إنه مازال مستمرا بتحطيمها، أيها الرجل الصغير، البائس.

لقد نلت من جسده، وليس من عقله. ومازلت تقتل لمصلحة الهدوء والنظام، لكنك تقتل في جبن وضعة! إنك لا تستطيع التحديق في عيني، إذا ما اتهمتني باللاأخلاقية. لأنك تعرف من منا نحن الاثنين، اللاأخلاقي، الشهواني، الخليع. أحدهم قال يوما، إنه يعرف شخصا واحدا من بين أشخاص لا عد لهم ولا حصر، لم ينبس يوما بنكتة جنسية. هذا الشخص هو أنا.

أيها الرجل الصغير، سواء كنت محاميا أو قاضيا أو رئيس

شرطة، فأنا أعرف نكتك الجنسية! كما أعرف مصدرها. فلتلتزم أفضل لك بالصمت!



وقد يحدث أن تتمكن من تقديم إثباتات تفيد أني لم أدفع مائة دولار مما يتوجب علي دفعه من الضرائب، أو أنى عبرت حدود ولاية أمريكية رفقة امرأة، أو أني تحدثت بلطف إلى طفل. ففي فمك وليس في فمي، ترن هذه الجمل الثلاث برنين

خاص، الرنين الخليع، الغبي للدناءة. فلأنك لا تعرف شيئا آخر، تحسبني مثلك. لا، يا رجلي الصغير، لست مثلك ولم أكن يوما مثلك في هذه الأمور. إن الأمر سيان عندي إن كنت تعتقد بذلك أو لا. طبعا، إنك تملك مسدسا، لكني أملك المعرفة. الأدوار إذن موزعة. وبهذه الطريقة تدفع بوجودك إلى الإفلاس، أيها الرجل الصغير:

سنة ١٩٢٤ اقترحت عليك بحث الطبع الانساني ولقد فرحت بهذه الفكرة.

سنة ١٩٢٨ توصل عملنا إلى نتائجه الأولى وكنت فرحا بذلك وسميتني "قائدا للعقل".

سنة ١٩٣٣ وصل هتلر إلى السلطة. لقد علمتك أن تفهم بأن هتلر أصبح قويا، لأن طبعك ضعيف، فحظرت نشر أعمالي.

و مع ذلك، فقد نشرت كتبي، وكنت أنت جد فرح لذلك. لكنك صمتَّ على ذلك مثل ميت، لأن رئيسك حظرها. لقد نصح الأمهات أيضاً أن يقمعوا الهيجان الجنسي لدى الأطفال عن طريق وقف التنفس.

تصمت إذن على كتابي، الذي احتفيت به سابقا اثنتي عشرة سنة.

سنة ١٩٤٥ يظهر كتابي من جديد. إنك تسميه "كلاسيكيا" مازلت سعيدا به.

اثنتان وعشرون سنة، سنوات طِوال، مليئة بالأحداث، سنوات الخوف انصرمت، منذ أن بدأت بتعليمك بأن الحل ليس في العلاج الفردي ولكن في الوقاية من الأمراض الروحية. اثنتان وعشرون سنة، علمتك فيها بأن الإنسان يتحطم بسبب هذا الجنون وينتهي به الأمر إلى التحسر، لأن روحه وجسده متجمدان ولأنه غير قادر على التمتع بالحب أو تقديمه. ذلك أن جسده غير قادر لحظة الحب على التوهج كما هو الشأن عند بقية الحيوانات.

اثنتان وعشرون سنة ولت على اليوم الذي قلت لك فيه ذلك والآن فقط تقول لأصدقائك بأن الأمر يتعلق بالوقاية وليس بعلاج الأمراض الفردية. لكنك تتصرف كما تصرفت آلاف السنوات: إنك تشير إلى الهدف الكبير، دون أن تخبر كيف يمكن المرء تحقيقه. إنك تشير إلى حب الحياة لدى الجماعات البشرية، تريد الوقاية من الأمراض الروحية، "إن تقول هذا، فهو مسموح به!"، دون أن تهاجم العجز الجنسي، فهذا ممنوع! وتظل كطبيب غارقا في البلادة.

ما رأيك بتقني يتحدث عن فن الطيران، دون أن يستطيع سبر سر المحرك؟ أهكذا تتصرف يا مهندس الروح البشرية! أنت جبان! إنك تريد زبيب كعكتي ولكنك لا تريد شوك وردتي. ألا تقول نكتا سيئة حولي، "مطور اللذة الجنسية"، يا طبيب

الروح الصغير؟

ألم تسمع يوما نهنهة النساء اللواتي يعانين من العجز الجنسي؟ ألا تسمع صرخة الشباب الخائفة، الذين تصدعت أرواحهم وأجسادهم بسبب الحب المتعذر تحقيقه؟ أما زالت سلامتك أهم بالنسبة لك من مرضاك؟ حتى متى تقدم العلم قربانا لكرامتك؟ حتى متى تمتنع عن رؤية أن ترددك التكتيكي قد كلف الملايين من الحيوات البشرية.

إنك تريد السلامة قبل الحقيقة.

وإذا ما سمعت عن اكتشافي (الأورغون) فإنك لا تسأل: "ماذا بإمكانه أن يفعل، كيف يعالج المرضى؟" بل تسأل: "هل يملك الصلاحية الطبية لاستخدامه؟". لا تعرف بأن وثيقة الصلاحية يمكنها أن تزعج عملي قليلا، لكنه ليس بإمكانها منعه، ذلك أني أملك صلاحية تطبيق ذلك في كل مكان على هذه الارض، كمكتشف لطاعونك الروحي وبحاثة في طاقتك الحيوية وأنه لا أحد بإمكانه أن يمتحنني، إن لم يكن أدرى مني بهذا الأمر: نشوة الحرية لديك.

لا أحد أيها الرجل الصغير، أخبرك لماذا لم تحقق حريتك حتى الآن، ولماذا إذا حدث وامتلكتها، سرعان ما تتنازل عنها إلى سيد جديد.

"اسمعوا، اسمعوا، إن نفسه تسول له الشك بالثورة

البروليتارية، بالديمقراطية! لتسقط الثورة والثورة المضادة! لتسقط! لتسقط!"



اهدأ قليلا، أيها الزعيم الصغير لكل الديمقراطيين ولبروليتاريا كل البلدان.

أعتقد بأن الجواب على هذا السؤال يرتبط أكثر بحريتك القادمة، وليس بآلاف القرارات الصادرة عن اجتماعاتك الحزبية.

"ليسقط! انه يوسخ شرف الأمة، وطليعة البروليتاريا الثورية! ليسقط! أعدموه بالرصاص!"

صراخك هذا، لن يقربك خطوة من هدفك، أيها الرجل الصغير. إنك تعتقد لحد الآن بأن حريتك في مأمن إذا ما أعدمت الآخرين. فلتنظر مرة واحدة إلى المرآة...

"ليسقط!"

توقف أيها الرجل الصغير! إنني لا أريد الانتقاص من قدرك، أريد فقط أن أوضح لك لماذا لم تحصل لحد الآن على حريتك. ألا يهمك هذا الأمر؟

"ليسقط..."

جيد، اني أريد أن ألخص ذلك: أريد أن أوضح كيف يتصرف الرجل الصغير بداخلك، إذا ما حدث وحصلت يوما على حريتك. لنفرض أنك طالب في مؤسسة ما، تهتم بالصحة الجنسية للأطفال والشباب. إنك معجب بهذه الفكرة العبقرية. تريد أن تساهم في التحرير. حدث هذا في مؤسستي:

كان تلامذتي يجلسون إلى أجهزة المجهر. وكنت تجلس عاريا في مجمع الأورغون. ناديت عليك، لترى ذلك بعينيك، فقفزت عاريا وعدوت إلينا لتظهر جسدك للنساء. عاتبتك للتو على صنيعك هذا، لكنك لم تفهم شيئا ولا أنا فهمت لماذا تعجز عن الفهم. بعد ذلك بأيام، خلال نقاش مطول، قلت بأنك تصورت الحرية في مؤسسة تهتم بالصحة الجنسية على تلك الشاكلة. ولكنك بمساعدتي، تكتشف بأنك أردت الإساءة إلى سمعة المؤسسة وإلى فكرتها بصنيعك ذاك، لذلك تصرفت بلؤم. هل اتضحت لك الأمور؟. تصمت! يمكنني أن أواصل الكلام:

مثال آخر يوضح لك لماذا تضيع دائما حريتك.أنت تعرف، وأنا أعرف، والكل يعرف بأنك جائع جنسيا، وبأنك تصب نظرات نهمة على الجنس الآخر، وبأنك تؤلف نكتا متسخة حول الجنس، باختصار إنك تملك خيالات متسخة وبورنوغرافية. سمعتك تصرخ ذات ليلة وأنت تعبر شوارع المدينة: نريد نساء! نريد نساء!..

ومن أجل الرقي بك ومساعدتك على فهم وتطوير حياتك، أسست جمعيات، فأقبلت في أعداد كبيرة للانضمام إليها. لماذا أيها الرجل الصغير؟

لقد اعتقدت بحرقة وجدية في إمكانية تطوير حياتك، وتوصلت أخيرا لمعرفة ما الذي يحركك. اعتقدت أن الأمر أشبه بماخور، حيث بإمكان المرء أن يحصل على النساء دون أن يدفع مليما. لقد أسست جمعيات لتطوير ثقافتك. ليس لأني كنت أعتقد أنه من السيئ أن يحضر المرء إلى الجمعية لكي يعثر على امرأة، بل لأنك أتيت إلى الجمعية وكنت أشبه بخنزير جائع. ولهذا السبب تم حل هذه الجمعيات وبقيت أنت غارقا في وسخك!.. تريد أن تقول شيئا؟

"البروليتاريا تم إفسادها من طرف البورجوازية. الزعماء الحقيقيون للبروليتاريا هم وحدهم من باستطاعتهم المساعدة. سيحطمون ذلك بقبضة من حديد وستحل القضية

الجنسية من تلقاء نفسها!".

أعرف، أعرف ماذا تعني بكلامك، أيها الرجل الصغير! لقد تركوا مشكلة الجنس في بلدك، بلد كل البروليتاريا، تحل نفسها بنفسها: لقد ظهر ذلك بجلاء في برلين، لما عمد جنود البروليتاريا إلى اغتصاب النساء لليال طِوال. اصمت! تعرف أن ذلك حقيقة! مناضلوك من أجل "الكرامة الثورية"، "جنود بروليتاريا كل العالم الأحرار" مرّغوا وجهك بالوحل لقرون طويلة... تقول: لقد حدث ذلك "فقط" في الحرب. الآن أريد أن أحكي لك قصة أخرى: أحد زعمائك المتحمسين لديكتاتورية البروليتاريا، كان أيضاً متحمسا لنظريتي الجنسية. لقد حضر إلي وقال لي: "إنكم رائعون! كارل ماركس علم البشر كيف يتحررون اقتصاديا وأنتم علمتموهم كيف يتحررون جنسيا. إنكم تقولون: انكحوا ما طاب لكم من النساء" في رأسك أيها الرجل الصغير، يتحول كل فن إلى بغاء ويتحول عناق العشاق إلى فعل بورنوغرافي. إنك لا تعرف عن أي شيء أتحدث، أيها الرجل الصغير. لهذا أنت معرض للسقوط دائما.

وإذا ما حدث لك أيتها المرأة الصغيرة، أن صرت مربية، دون أن تكون لك أدنى كفاءة مهنية لممارسة ذلك، بل فقط لأنك لا تملكين أطفالا، فإنك لا تنشرين سوى المرض في كل مكان. يتوجب عليك أن تربي أو تعالجي الأطفال. في التربية، يعني



ذلك، هذا إذا ما أخذ المرء الأمر بجدية، الاهتمام بالجنس لدى الأطفال بطريقة سليمة. ولكي يتحقق ذلك، على المرء أن يكون قد خبر معنى الجنس. لكنك سمينة وجسدك يشبه البرميل، غير لبقة، جسديا منفرة. وهذا وحده يكفي لكي تكرهي كل جسد جذاب ومليء بالحياة. لا أعاتبك اللحظة، فقط لأنك غير متناسقة الجسد وأشبه ببرميل ولا لأنه لم تتوفر لك يوما فرصة ممارسة الحب (إذ لا رجل سوي أراد منحك إياه) وليس لأنك لا تفهمين سبر عاطفة الحب عند الأطفال أفعل ذلك. بل لأنك من عجزك الجنسي ومن جسدك المهترئ، الأشبه ببرميل، تصنعين أخلاقا وفي حقد مر تخنقين الحب

في الأطفال. إنها جريمتك أيتها المرأة القبيحة، الصغيرة. فالضرر الذي يترتب عن وجودك، هو أنك تصنعين من أطفال أباء أسوياء، أطفالا عصاة وتتصرفين إزاء عاطفة الحب لدى الأطفال كما لو أنها عوارض مرض. ولأنك أنت التي تشبهين البرميل وتدورين حول نفسك مثل برميل وتفكرين مثل برميل وتربين الأطفال مثل برميل، أيتها المرأة الصغيرة، القبيحة، دون أن تنزوي بنفسك في ركن صغير بهذه الحياة، تفرضين

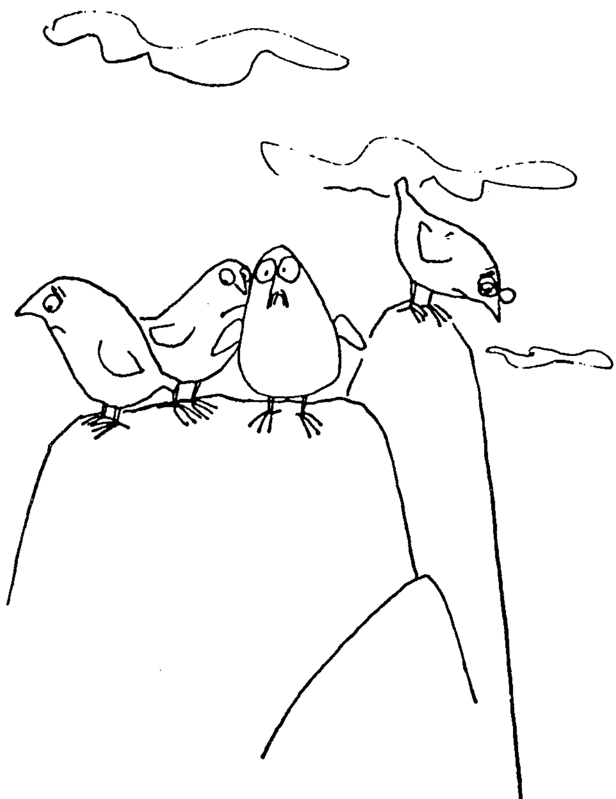


على الحياة قبحك، برميليتك، انحرافك، حقدك المر، مخفية إياه خلف ضحكتك الكاذبة!

وأنت أيها الرجل الصغير، لأنك تسمح لمثل هؤلاء النساء من الاقتراب من أطفالك الأسوياء، وتسمح لهم بصب مرارتهم وسمهم في أرواح سليمة، أنت كما أنت، تعيش كما تعيش وتفكر كما تفكر، ليظل العالم على حاله.

وأنت هكذا أيها الرجل الصغير: تأتي إلي لكي تتعلم ما حققته عن طريق العمل المضني، ما فكرت به، ما ناضلت من أجله. بدوني،لم يكن بمقدرتك أن تكون أكثر من طبيب صغير في مدينة صغيرة. لقد صنعت منك رجلا كبيرا، منحتك فني وعلمي. علمتك أن ترى كيف تضمحل الحرية في كل ساعة وكل يوم. كيف يتم استنبات العبودية بدلا منها. ويحدث أن تحصل على مسؤولية تمثيلي في بلد بعيدة. أنت حر بكل ما تعنيه هذه الكلمة وأنا كلي ثقة بك. لكنك تشعر داخليا بأنك مرتبط بي، لأنك لم تستطع أن تطور شيئا من داخلك. تحتاج إلي، لكي تغرف مني المعرفة، الوعي، النظرة إلى المستقبل وخاصة التقدم. أعطيك كل هذه الأشياء عن طيب خاطر، أيها الرجل الصغير، دون أن أطالبك بالمقابل. تم تعلن أني اغتصبتك. تصبح وقحا تجاهي، ظنا منك أنك بتلك الطريقة ستصبح "حرا". ولكن أن تفهم الوقاحة كحرية، كان ذلك دائما علامة العبيد. وتمتنع استنادا إلى حريتك تلك عن إرسال

تقارير حول عملك. ذلك أنك تحس نفسك حرا.. من التعاون والمسؤولية! ولهذا أنت كما أنت، أيها الرجل الصغير والعالم هو هو.



أتعرف أيها الرجل الصغير قصة النسر الذي يحضن بيض الدجاج؟ مازال النسر يعتقد بأنه يحضن نسورا صغارا وأنه سوف يربيهم لكي يصبحوا نسورا كبارا. ولكن البيض لم يفقس سوى كتاكيت. وأمام حسرته الكبيرة، يتشبث النسر بخيط الأمل، فقد تصبح الكتاكيت نسورا ذات يوم. لكنها في النهاية لم تتحول إلى أكثر من دجاج منقنق. ولما اكتشف النسر هذا الأمر، لم يستطع أن يقاوم إلا بمجهود كبير رغبته في افتراس هذه الكتاكيت وهذا الدجاج الذي لا يحسن سوى النقنقة. لقد منعه من هذه الجريمة الحكيمة أمل صغير. أمل أن يجد يوما بين هذه الكتاكيت المنقنقة نسرا صغيرا، قد يصير يوما ما كبيرا، يحدق من قمة الجبل في الأبعاد، يكتشف عوالما وأفكارا ونظم حياة جديدة. وحده هذا الأمل الصغير يمنع النسر الوحيد، المهموم من افتراس هذا الدجاج المنقنق. ذلك لأنهم يجهلون بأن نسرا من حضنهم كل ذلك الوقت. لم يروا بأنهم يعيشون في قمة عالية، أعلى من المستنقعات العميقة والمبللة. انهم لا يحدقون بالأعالي مثل النسر الوحيد. انهم لا يفعلون أكثر من التهام الطعام، إذا ما حمله النسر إليهم. انهم يستظلون بحرارته ويندسون تحت أجنحته القوية، إذا ما أمطرت و أرعدت بالخارج، أو يهربون منه إذا ما اشتعل غضبا ويبدؤون بإلقاء حجارة مسننة صغيرة من كمائنهم، بنية إصابته بجروح. لقد أراد في بداية

هجومهم النذل عليه أن يفترسهم عن آخرهم. لكنه فكر قليلاً وشعر بالشفقة عليهم. فيوما ما، قد يجد بينهم، لا بد أن يجد بين هذا الدجاج الأعمى، المنقنق، الجشع، نسرا صغيرا، يشبهه.

النسر الوحيد لم يفقد بعد الأمل حتى يومنا هذا ومازال بسبب ذلك يربي الكتاكيت.

انك لا تريد أن تصبح نسرا، أيها الرجل الصغير. لذلك سيتم افتراسك من طرف الصقور. انك تخشى النسر لذلك تعيش مع الآخرين وبسبب من ذلك سيتم افتراسك أيضاً رفقة الآخرين. ذلك أن بعض دجاجك يحضن بيض الصقور. والصقور الآن أصبحوا زعماءك ضد النسور، الذين حاولوا الرقي بك بعيدا. الصقور علموك أكل الجيفة والاكتفاء بالفتات وفوق هذا وذاك، الصراخ بحياة الزعيم.

أنت الآن تجوع جماعات وتموت جماعات ورغم ذلك تخاف النسور الذين ربوا كتاكيتك.

لقد بنيت بيتك، حياتك، ثقافتك، حضارتك، علمك، تقنيتك، حبك وتربيتك لأطفالك على الرمل. انك لا تعرف ذلك ولا تريد معرفته، وانك تضرب الرجل الكبير الذي يعلمك إياه. انك تأتي وتسأل في بؤس كبير نفس الأسئلة:

طفلي أصبح عدوانيا، يحطم كل ما تقع عليه يداه. يصرخ ليلا من الخوف، لا يتعلم جيدا، ممتقع الوجه، متوحشا... ما

الذي علي فعله؟ ساعدني!

أو: زوجتي باردة الأحاسيس. إنها لا تمنحني حبا. تعذبني. تصرخ في هستيريا. تخونني مع عشرات الرجال. ما الذي علي فعله؟ انصحني!

أو: لقد اندلعت حرب جديدة، مدمرة، بعدما أنهينا الحرب الأخيرة منتصرين. ساعدني، ما الذي علي فعله؟

أو: أن الحضارة التي كُنت دائما فخورا بها، تتهاوى بفعل انهيار العملة. ملايين الناس لا يملكون طعاما، يجوعون، يقتلون، يسرقون، ينحطون، يفسدون ويفقدون الأمل. ساعدني! قل لي ما الذي علي فعله؟

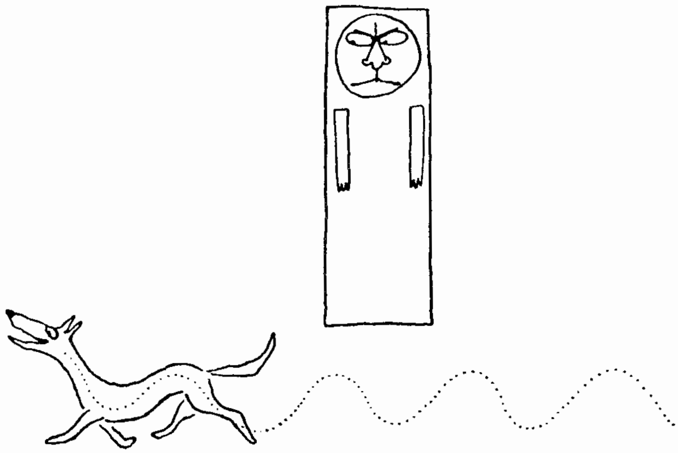
ما الذي علي فعله؟ ما الذي على المرء أن يفعله؟ هذا لسان حالك منذ مئات السنين.

وهذا قدر الأعمال الكبيرة، وليدة النظرة إلى الحياة التي تضع الحقيقة قبل الأمن والتي تم افتراسها من طرفك، لتتحول بعد ذلك إلى براز.

كثير من الرجال الوحيدين والشجعان، قالوا لك منذ زمن، ما الذي يتوجب عليك فعله. لقد أخفيت دائما تعاليمهم، دمرتها، وأمسكت دائما بالجهة الخاطئة، دائما بالخطأ الصغير لا بالحقيقة الكبيرة. في المسيحية، في مبدأ سيادة الشعب، الاشتراكية، في كل شيء تلمسه يداك. وتسأل لماذا

تفعل ذلك؟ لا أعتقد بأنك تسأل في صدق! انك تقدم أو تدعو إلى القتل إذا ما سمعت الحقيقة!

لقد اقترفت كل هذا وشيدت بيتك على الرمل، لأنك لا تعرف الإقدام، لأنك عاجز على الإحساس بالحياة في داخلك، لأنك تقتل الحب بأطفالك، تخنقه باليد وهو بعد مولودا صغيرا. انك لا تستطيع تحمل أي تعبير حر وحي، أية حركة حرة، وطبيعية. إنك ترتجف في عمقك وتسأل: "ما الذي سيقوله المستر جون أو السيد مايير؟"



أنت تخاف التفكير، أيها الرجل الصغير. لأن التفكير يتساوق مع الإحساس بالجسد. لكنك تخاف جسدك، أيها

الرجل الصغير. كثيرون هم الرجال الكبار الذين صرخوا بك: عد إلى أصلك! أصغ إلى صوتك الداخلي، اتبع أحاسيسك الحقيقية وحافظ على الحب عاليا! لكنك كنت أصمَّ، ذلك أنك فقدت القدرة على الفهم وعلى الإصغاء إلى مثل هذه الكلمات. لقد تبخرت هذه الكلمات مثل صوت الصدى في الصحراء وتاه الرجل الكبير في صحرائك الرهيبة، أيها الرجل الصغير.

لقد كان لك الخيار بين نيتشه الذي أراد أن يصنع منك رجلا أعلى وهتلر الذي حولك إلى عبد. فصرخت باسم هتلر واخترت العبودية. كان لك الخيار بين ديمقراطية لينين وديكتاتورية ستالين، فاخترت ديكتاتورية ستالين.

كان لك الخيار بين نظرية فرويد الجنسية، التي تكشف عن البعد الجنسي لمرضك الروحي وبين نظريته عن التكيف الثقافي. فاخترت التكيف مع الثقافة السائدة، أخرست صوت نظريته الجنسية.

كان لك الخيار بين بساطة المسيح وباولوس الذي فرض العزوبية على رهبانك والزواج القهري، فقتلت أم المسيح البسيطة، التي وضعت المسيح عن حب.

كان لك الخيار بين ماركس ونظريته عن قوة العمل الحية، قوة الانتاج الوحيدة وايديولوجية الدولة. فقتلت كل ما هو حي في عملك واخترت أيديولوجية الدولة.

وفي الثورة الفرنسية كان لك الخيار بين روبسبيير الدموي وبين دانتون الكبير. فاخترت الدم، أرسلت بالرجل العظيم إلى المقصلة.

كان لك الخيار بين يوليوس سترايشر ووالتر راتناو. لكنك قتلت راتناو.

كان لك الخيار بين لودج وويلسون، لكنك قتلت ويلسون.

كان لك الخيار بين محاكم التفتيش الدموية وحقيقة غاليلي الكبير، الذي تتمتع اليوم باكتشافاته، فانتهى به الامر إلى الموت بفعل تحقيرك له وعدت مرة أخرى إلى محاكم التفتيش في القرن العشرين.

كان لك الخيار بين أن تسبر سر المرض العقلي وبين العلاج عن طريق استعمال الصدمة الكهربائية، فاخترت الصدمة الكهربائية، حتى لا تقف على حقيقة بؤسك، حتى تظل أعمى حيث يتوجب عليك أن تفتح عيونك.

وقبل وقت قصير، كان لك الخيار بين الطاقة الذرية،وطاقة الأورغون (طاقة الحياة أو الطاقة الكونية) ولكنك متشبثاً بضيق أفقك، اخترت الطاقة الذرية.

كان لك الخيار بين ألا تفهم الخلية السرطانية وبين اكتشافي لأسرارها، هذا الاكتشاف الذي بامكانه أن ينقذ الملايين من الحيوات البشرية، لكنك تكرر نفس الأخطاء

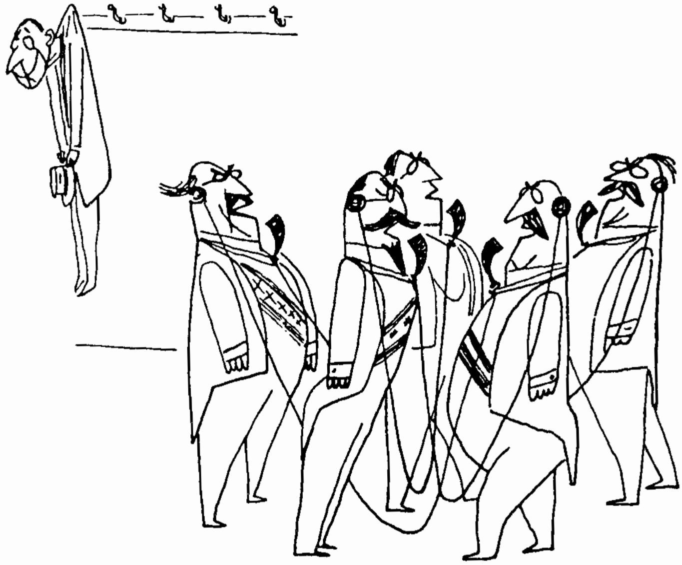
الغبية على صفحات جرائدك وتسكت عن المعرفة التي بإمكانها أن تنقذ ابنك، زوجتك وأمك.

انك تجوع وتموت ملايين المرات بفعل المجاعة ولكنك تقاتل المسلمين، دفاعا عن قدسية البقر، أيها الرجل الهندي الصغير. إنك تغرق في السكر أيها الإيطالي الصغير وأنت أيضاً أيها السلافي الصغير من تريست ولكنه لا شيء يؤرقك اكثر من السؤال: هل تريست إيطالية أم سلافية. كنت أعتقد بأن تريست ميناء لكل سفن العالم!

انك تعلق صور النازيين، بعدما أفنوا الملايين من البشر. أين كنت وكيف كنت تفكر لما اقترفوا جريمتهم تلك؟ ألا يكفيك هذا العدد من الضحايا، لكي تبدأ التفكير بطريقة صحيحة؟ لماذا تنفجر بالبكاء فقط حين رؤيتك للجثث؟ كل صغيرة من صغائرك ومصاعبك تكشف عن بؤسك الكبير. تقول: لا يجب أن تنظر إلى الأمور دائماً نظرة تراجيدية! هل تشعر إذن بمسئوليتك عن كل ذلك؟

في تلك الخطابات كنت تخاطب نفسك. لو أنك تحملت ولو مقدارا صغيرا من مسئوليتك، لكانت للعالم صورة أخرى غير صورته اليوم ولما قضى أصدقاؤك جراء أفعالك الصغيرة.

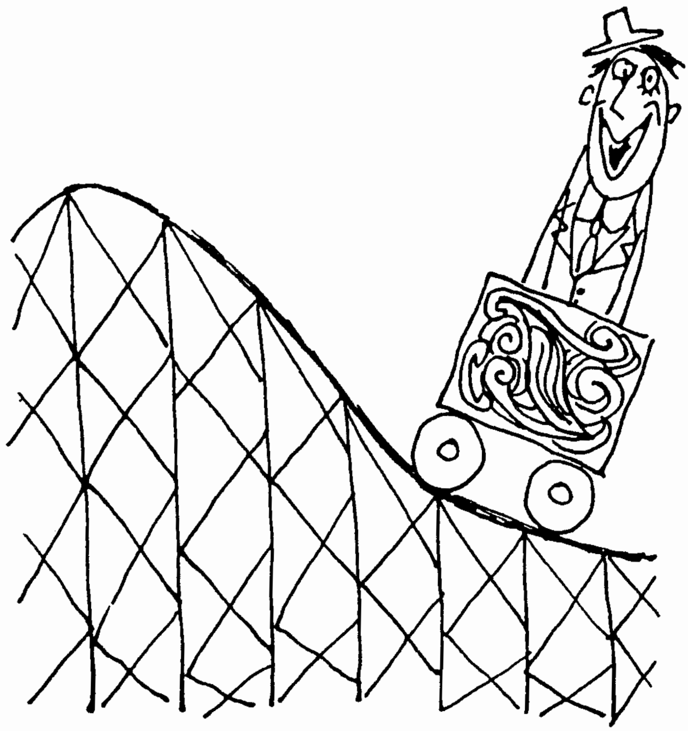
لهذا السبب مازال بيتك يرتفع فوق الرمل ومازال سقفه يتساقط فوق الرأس ولكن بالطبع فان ما يهمك هو شرفك



البروليتاري أو الوطني. تغوص أقدامك في الوحل، تهوي أرضا، لكنك لا تتوقف عن الصراخ بحياة الزعيم، بشرف الأمة الروسية أو الألمانية أو اليهودية! ماسورة الماء تتحطم وطفلك مهدد بالغرق، لكنك مازلت تؤمن "بالعقوبة والنظام"، مستعملا العصا في تلقينهما لطفلك. وعبر أسوار غرفتك يصرخ الريح وزوجتك تلزم السرير بفعل التهاب حنجرتها، لكنك أيها الرجل الصغير، تشيد أساسا صخريا من أجل "الوهم اليهودي" الوليد.

انك تحضر إلي عدوا وتسأل"أيها الدكتور الطيب، الحبيب،

الكبير! ما الذي علي عمله، ما الذي على المرء عمله؟ بيتي يتهاوى من كل مكان، الريح تصرخ بداخله، طفلي مريض، زوجتي بئيسة وأنا أيضاً مريض. ما الذي علي عمله، ما الذي على المرء عمله؟ شيد بيتك على الجرانيت، الأساس هو طبيعتك التي دمرتها، الحب الذي يشتعل بجسد طفلك، هو



حلم زوجتك، حلم حياتك نفسه لما كان عمرك ستّ عشرة سنة. فلتُضحِّ بأوهامك من أجل قطعة صغيرة من الحقيقة. لتبعث بسياسييك وديبلوماسييك إلى الشيطان! لتمسك مصيرك بقبضتك ولتبني حياتك على الصخر. لتنسَ ما سيقوله جارك ولتصغ إلى أعماقك! حتى جارك سيكون شاكرا لك. لتقل لكل رفاقك في العمل في هذا العالم، بأنك مستعد للعمل فقط في سبيل الحياة وليس في سبيل الموت. وبدل أن تعدو لمشاهدة طقوس الإعدام والصراخ بحياة الزعيم، لتخلق قانونا يحمي الحياة وما عليها. فمثل هذا القانون هو جزء من أساس بيتك الصخري ومن سوره الذي يحميه. ولتحمِ الحب بداخل طفلك من تحرشات النساء والرجال الذين ينقصهم الحب. ولتطارد العجوز العزباء الثرثارة ولتشهر بها أو لتبعث بها إلى إصلاحية الأحداث! توقف عن محاولة التفوق في الاستغلال على مستغليك إذا ما سنحت لك فرصة قيادة العمل ولتلق بالبدلة الرسمية وبطربوشك المتصلب ولا تنتظر الحصول على إذن من أجل معانقة زوجتك. لتتحالف مع أترابك في كل العالم لأنهم مثلك في الخير والشر. دع طفلك ينمو مثلما خلقته الطبيعة (أو خلقه الله). لا تحاول تحسين الطبيعة. تعلم كيف تفهمها وتحافظ عليها. اذهب إلى المكتبة وليس إلى حلبة الملاكمة، سافر إلى

البلاد البعيدة وليس إلى كورني ايلاند. وخصوصا، فكر بطريقة سليمة. ثق بصوتك الداخلي الذي ينذرك في صمت. حياتك ملك يمينك. لا تثق بأحد آخر، خصوصا بزعمائك. كن أنت! لقد سبق لرجال كبار أن قالوا لك ذلك!

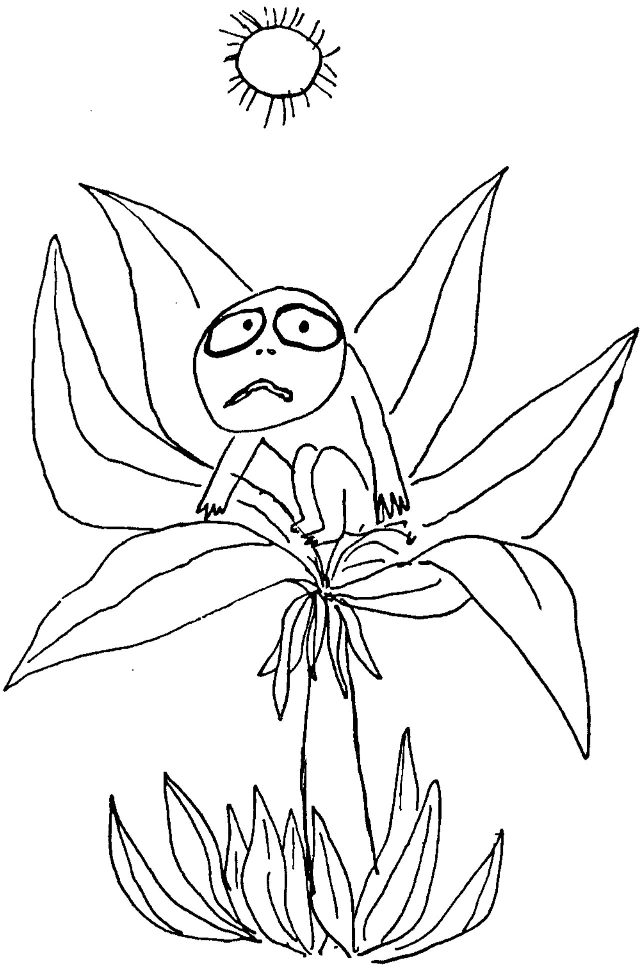
"أتسمعون هذا الرجعي، البورجوازي الصغير! أتسمعون! إنه لا يؤمن بحركة التاريخ الحديدية التي ستلقي به إلى مزبلة التاريخ!

"اعرف نفسك" يقول! يا للهراء البورجوازي!

بروليتاريا كل العالم الثورية وتحت قيادة زعيمها المحبوب، أب كل الشعوب، الروسية والبروسية، سوف تحرر الشعب! وليسقط الفرديون والفوضويون!"

وليحيا آباء كل الشعوب، أيها الرجل الصغير! يحيا .. يحيا! أصغ إلي الآن أيها الرجل الصغير:

إنك مقبل على حكم الأرض. انك ترتجف من ذلك. ولقرون أخرى سوف تذبح أصدقاءك وتمجد زعماءك. ويوما بعد يوم، ليلة بعد ليلة، أسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر، سنة بعد سنة في هذه القرون سوف ترفع وتمجد زعيما بعد آخر وسوف لن تصغي إلى بكاء أطفالك ولا إلى توجعات مراهقيك ولا إلى الحنين الكبير والمضني لنسائك ورجالك. أو حتى إذا سمعت ذلك، فسوف تسميه فردية وبورجوازية صغيرة. وعبر



القرون، أقول لك، سوف تسفك الدماء في الوقت الذي يتوجب عليك أن تصون الحياة. وسوف تعتقد أنه بمساعدة جلاديك ستحقق الحرية. وستجد نفسك دائما غارقا في الوحل. سوف تعدو عبر القرون خلف زعمائك، المأخوذين بجنون العظمة وتتقوت على كلماتهم المغرية. وأمام الحياة التي تناديك وتصرخ بك، ستظل اعمى، أصمّ. ذلك أنك تشعر بالخوف من الحياة الحية، أيها الرجل الصغير، خوف قاتل! سوف تقتلها ظنا منك أنك تبني الاشتراكية أو الدولة أو الشرف القومي أو اتفاقية الأجور أو شرف الرب. شيء واحد لن تعرفه ولن تطلب معرفته: انك أنت وحدك من خلق هذا البؤس، كل ساعة، كل يوم دون توقف، انك لا تفهم أطفالك، فأنت تحطم عمودهم الفقري، بدل أن تزرع فيهم الشجاعة وروح الاقدام، انك تسرق الحب، انك لا تحب سوى المال وتدمن على السلطة. وانك لتحتفظ بكلبك، فقط لكي تقنع نفسك بأنك أنت الآخر "سيدا"!

وسوف تتيه عبر القرون، حتى تقدم أنت و أمثالك على التخلص من هذا البؤس الاجتماعي وحتى ينبعث من ظلمات وجودك بصيص إدراك خافت. آنذاك سوف تتعلم شيئا فشيئا وبانتباه كيف تبحث عن رجل الحب والعمل والمعرفة. وكيف إذا ما عثرت عليه أن تحترمه وتقدره. آنذاك سوف تدرك بأن

المكتبات أهم من مقابلات الملاكمة، وأن التجول في الغاب أهم من المارش العسكري وأن الحياة أفضل من القتل وأن الوعي الذاتي أفضل من الوعي القومي وأن التواضع أفضل من فم مليء بالشعارات القومية أو بأي نوع من أنواع الصراخ.

تعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة، حتى أحقر الوسائل. أما أنا، فإني أقول لك: الغاية هي الطريق وكل خطوة هذا اليوم هي حياتك غدا. الأهداف الكبيرة لا يمكن أن تحققها الوسائل الوضيعة. لقد أثبت ذلك في كل انقلاب اجتماعي كبير. وضاعة ولا إنسانية الوسيلة تصيرك حقيرا ولا إنسانيا وتجعل من الهدف أمرا مستحيلا.

"كيف إذن أحقق هدفي: الحب المسيحي، الاشتراكية، الدستور الأمريكي؟" أسمعك تسأل. حبك المسيحي، اشتراكيتك، دستورك الأمريكي هو ما تقوم به يوميا، كيف تفكر كل ساعة، كيف تعانق رفيقة حياتك وتعيش طفلك بين يديك، كيف تنظر إلى عملك كمسؤوليتك الاجتماعية وكيف تتجنب أن تصبح مثل كل الذين يقمعون الحياة. لكنك أيها الرجل الصغير تسيء إلى الحريات التي تمنحك بعض الحرية الدستورية، حتى تحطم هذا الدستور، بدل أن تترك جذور تلك الحريات تنمو في حياتك اليومية.

أراك كلاجئ ألماني تسيء إلى حسن الضيافة السويدية. يومذاك كنت بعد زعيما مستقبليا لكل منبوذي الارض. أما زلت تذكر مائدة الطعام السويدية؟ بلى، بلى! أنت تعرف ما الذي أعنيه! فلتكن ذاكرتك قوية! سوف أسهل عليك الأمر: إن السويديين يعتنون بعاداتهم الطيبة، مثلا أن يملئوا مائدة الطعام بكل أنواع المأكولات ويتركون ذلك لضيفهم يأكل منه ما يريد وما تشتهيه نفسه. بالنسبة لك، كان هذا الأمر غريبا. أنت لا تفهم كيف تثق بعفة البشر. بل إنك تحكي لي شامتا وتقول بأنك لم تأكل خلال النهار، حتى تلتهم مجانا ما تشتهيه نفسك من الطعام الذي يقدمه السويديون مساء فوق يخت أو في مطعم.

"لقد جعت في طفولتي..."

أعرف ذلك أيها الرجل الصغير. إذ أنى رأيتك تجوع وأعرف معنى الجوع. لكنك لا تعرف أنك تؤبد جوع أبنائك ملايين المرات وأنت تسرق من مائدة الطعام، أيها المنقذ المستقبلي لكل الجوعى. هناك أشياء على المرء ألا يقوم بها: المرء لا يسرق ملعقة الفضة أو مرآة أو مائدة الطعام في منزل ضيافة! لقد وجدتك بعد الكارثة الألمانية في حديقة عمومية نصف ميت من الجوع. تقول بأن حزبك لم يقدم لك يد المساعدة، لأنك لم تستطع إثبات عضويتك في الحزب.

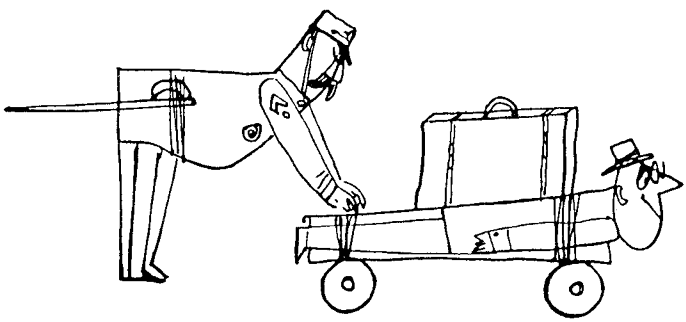
زعماؤك يفرقون بين جائع أحمر وأسود وأبيض، أما نحن، فلا نعرف سوى الكائن الجائع...

هكذا أنت في الأشياء الصغيرة!

وهكذا أنت أيها الرجل الصغير في الأشياء الكبيرة:

أنت تريد أن تحرر العالم من الاستغلال الرأسمالي ومن احتقار الكرامة الانسانية وأن تحقق الاعتراف بحقوقك في الوجود. ذلك أنه منذ مئات السنين والاستغلال واحتقار كرامة الإنسان ونكران الجميل يحكمون العالم. ولكن كان هناك أيضاً احترام للأعمال الكبيرة ووفاء للمتبرعين الكبار.

وإذا ما أجلت النظر من حولي اليوم، أرى أنك حيث نصبت زعيمك الصغير، أصبح الاستغلال أكثر حدة من السابق، والحط من كرامة الإنسان أكثر توحشا، أما حقوقك الوجودية فقد اندثرت إلى الأبد.



وحيثما تقاتل من أجل تنصيب زعيمك، يندثر كل اعتبار للعمل ويعوض بسرقة ثمار العمل الكبير والشاق لأصدقائك الكبار. لا تعرف ماذا يعني الاعتراف بعطية ما، إذ أنك لا تعتقد أنه بإمكانك أن تكون أمريكيا أو روسيا أو صينيا حرا، إذا ما توجب عليك الاعتراف أو الاحترام. ما كنت تريد تحطيمه يزهر أقوى من السابق وما كان يتوجب عليك الحفاظ عليه مثل حياتك، دمرته. الوفاء بالنسبة لك "سلوك عاطفي" أو عادة "بورجوازية صغيرة". احترام الإنجازات الكبيرة، هو بالنسبة لك مثل تزلف العبيد. لكنك لا تنتبه إلى أنك تتزلف حيث أنت عارٍ من الاحترام، وأنك تجحد حيث يتوجب عليك الوفاء. انك تقف على رأسك، ظنا منك أنك ترقص في مملكة الحرية. سوف تستيقظ من كابوسك أيها الرجل الصغير، لتجد نفسك ملقى على الأرض. لقد خلطت بين حرية التعبير والنقد، وبين الكذب والتنكيث. تريد أن تنتقد، لكنك ترفض أن توجه سهام النقد إليك، ولهذا السبب سوف تتمزق وتحطم. انك تحب الاعتداء على الآخرين، لكنك لا تحب أن يُعتدى عليك. لهذا السبب مازلت تطلق النار في غدر.

"شرطة! شرطة! هل جواز سفره حقيقي؟ إنني أشك، أن يكون فعلا طبيبا. اسمه غير موجود في:

Who is Who?

ونقابة الأطباء تحاربه"

ليس هناك ما يمكن تبليغه للشرطة، أيها الرجل الصغير! باستطاعة الشرطة أن تقبض على اللصوص وأن تنظم المرور، لكنه ليس باستطاعتها الحد من حريتك أو حمايتها. أنت نفسك حطمت حريتك وما زلت تحطمها بلا شفقة. قبل الحرب العالمية الاولى، لم يتم التعامل بجوازات السفر عالميا. كان بإمكانك السفر حيث تشاء. والحرب من أجل "الحرية، والسلام" كانت وراء ظهور جوازات السفر، التي علقت بك منذ ذلك الوقت مثل القمل بالفرو. وإذا ما أردت أن تسافر ٣٠٠ كيلومتر في اوروبا، يتوجب عليك أن تقدم طلبا إلى أكثر من عشر قنصليات. وهكذا ظلت الأمور، حتى بعد الانتهاء من الحرب العالمية الثانية وهكذا يكون عليه الحال بعد الحرب الرابعة والثامنة!

"اسمعوا، اسمعوا! إنه يلوث حماسي للحرب، شرف وطني، مجد أمتي!"

اخرس، أيها الرجل الصغير! هناك نوعان من الأصوات، ولولة الأعاصير فوق قمم الجبال... وضراطك! أنت مجرد ضراط ومع ذلك تعتقد بأنك تفوح برائحة البنفسج. أعالج بؤسك الروحي وأنت تسال إن كان اسمي مذكورا في:

Who is Who?

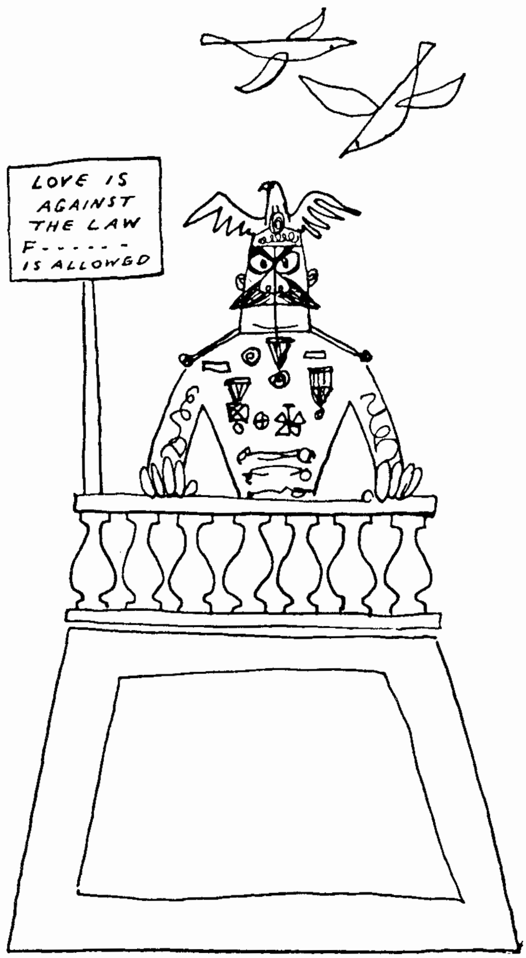
أنا افهم سرطانك، لكن مديرك الطبي الصغير يمنعني من تطبيق تجاربي على الفئران. علمت اطباءك أن يفهموك طبيا، لكن نقابة أطبائك تغتابني لدى الشرطة. أنت تعاني من ارتباك عقلك وهم يعاقبونك بالكرسي الكهربائي، كما عاقبوك في القرون الوسطى بالأفعى أو السلسلة أو السوط.

اخرس أفضل لك، أيها الرجل الصغير! إن حياتك جد بئيسة! لا أريد إنقاذك، لكني سألقي خطابي إليك حتى النهاية، حتى ولو ارتديت بدلتك البيضاء وقناعك، حاملا حبل المشنقة بيدك الدموية، مستعجلا لحظة شنقي.

ليس باستطاعتك شنقي، دون أن تشنق نفسك. إذ إنني حياتك، إحساسك بالعالم، إنسانيتك، حبك، فرحتك لحظة الخلق. لا، لا تستطيع قتلي، أيها الرجل الصغير! لقد شعرت مرة بالخوف منك، كما أنى كنت أومن بك سابقا. لكني استطعت أن أسمو فوقك، وأن أراك عبر القرون، متأخرا ومتقدما في الزمن. أريدك أن تفقد الإحساس بالخوف منك. أريدك أن تعيش عيشة سعيدة، محترمة وأن يكون لك جسد حي وليس جامدا وأن تحب أطفالك لا أن تكرههم وأن تسعد زوجتك. إني طبيبك وما دمت تعمر هذه الكواكب، فأنا طبيبك الكوكبي، لست ألمانيا ولا يهوديا ولا مسيحيا ولا إيطاليا ولكني مواطن أرضي. بالنسبة لك لا يوجد سوى الأمريكيين الملائكيين واليابانيين الشياطين.

"أوقفوه! فتشوه! هل يملك صلاحية ممارسة نشاطه الطبي؟

فلتصدروا مرسوما ملكيا يجعل ممارسة نشاطه متعلقا بموافقة ملك بلدنا الحر! انه يقوم بتجارب حول وظيفة الشهوة لدي! اسجنوه! اطردوه من البلد!"



لقد حصلت على حرية ممارسة نشاطي العلمي بنفسي. لا أحد باستطاعته أن يمنحني إياها. لقد أسست علما جديدا، بإمكانه أن يفهم حياتك وسوف تعود إليه، لا ريب، بعد عشر أو مائة أو ألف سنة. مديرك الطبي ليس له سلطة علي، أيها الرجل الصغير! لا يمكنه أن يؤثر بشيء، إلا إذا كانت له شجاعة التعرف على حقيقتي. انه لا يملك الشجاعة وهو لذلك يحكي في بلاده بأنه قد تم حبسي في أمريكا بمصحة عقلية وأحد الأغبياء الصغار، الذي زور التجارب العلمية من أجل إنكار وجود شهوة الحياة، عين نفسه مفتشا لكل المستشفيات، أما أنا، فإني أكتب هذا الخطاب إليك، أيها الرجل الصغير! أتريد مزيدا من الأدلة على ضعف زعمائك! متخصصيك، مدرائك الطبيين وأساتذتك؟ لم يقف منعهم أمام رغبتي في فهم مرضك السرطاني. فقد درست ومارست التشريح والبحث الميكروسكوبي ضد قرار المنع الذي اتخذوه. وأسفارهم إلى انجلترا وفرنسا من أجل الحط من قيمة عملي، لم تفلح شيئا.

وهكذا ظلوا حيث كانوا دائما، غارقين في الباتولوجيا، أما أنا فقد أنقذت حياتك مرات كثيرة، أيها الرجل الصغير!

"إذا ما وصل قائد بروليتاريا كل البلدان إلى السلطة في ألمانيا، فسوف أعدمه! إنه يعبث بشرف شبابنا البروليتاري!

ويزعم بأن البروليتاريا مثلها مثل البورجوازية، تعاني من مشاكل فيما يخص القدرة الجنسية! إنه يحول جمعيات الشباب إلى مواخير، يزعم أني حيوان! إنه يدمر وعيي الطبقي!"

أجل، إني أدمر مثلك الكبرى، التي تكلفك رأسك وفهمك، أيها الرجل الصغير. إنك تريد أن ترى أملك الكبير، الخالد، فقط في المرآة، حيث لا يمكنك قط الإمساك به. ولكن فقط إمساكك بالحقيقة، بقبضتك الصامدة، من شأنه أن يصنع منك سيد هذه الأرض!

"اطردوه من البلد! اجعلوا حياته مستحيلة! إنه يقبر السلام والنظام. إنه جاسوس أعدائي اللدودين! لقد اشترى بالمال الذي توصل به من موسكو (أو من برلين) بيتا!"

إنك لا تفهم شيئا، أيها الرجل الصغير! امرأة صغيرة عجوز شعرت بالخوف من الفئران. خافت أن تنسل الفئران الصغيرة تحت بدلتها وبين أفخاذها. لم تكن لتشعر بهذا الخوف، لو أنه سبق لها أن تمتعت بالحب. لقد كانت جارتي وكانت تعرف بأني أحتفظ بفئران في القبو. وفي هذه الفئران تعلمت فهم عفنك السرطاني، أيها الرجل الصغير. المرأة المسكينة، الصغيرة، سوف تطالبك أيها الرجل الصغير، الذي كنت صدفة مؤجر البيت، أن تنظف القبو من الفئران.

وفي قمة شجاعتك ومثاليتك، تطالبني بمغادرة البيت. اضطررت أن اشتري بيتا، حتى أتمكن من إجراء تجارب على فئراني عنك وعن جبنك، ماذا فعلت إذن أيها الرجل الصغير؟ كنائب طموح وصغير أردت أن تبني مستقبلك على حسابي، على حساب الرجل الشهير والخطير. قلت بأني جاسوس روسي أو ألماني. فتم سجني. ولكني كنت سعيدا برؤيتك آذانك تحمر، لحظة الاستماع إلي. لقد كنت أشعر بالشفقة عليك، أيها النائب الصغير للدولة، لقد كنت تدعو إلى الرثاء. وبوليسك السري، لم يتحدث قط باحترام حولك وهم يفتشون بيتي بحثا عن أدوات التجسس.

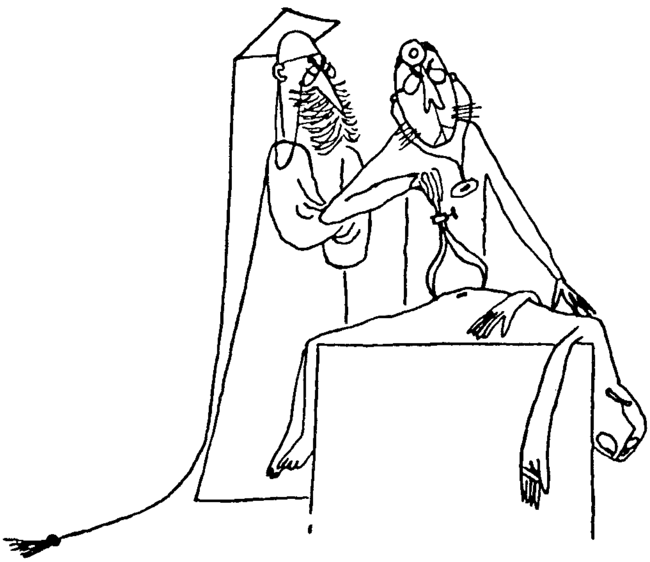
وبعد ذلك بزمن سوف تقف مرة أخرى ضدي، هذه المرة كقاض يهودي، متهما إياي بأن مكتبتي تحوي كتبا للينين وتروتسكي. إنك لم تكن تعرف أيها الرجل الصغير، المسكين، شيئا عن مهمة المكتبة. قلت لك صراحة بأن مكتبتي تحوي أيضاً كتبا لهتلر وبوذا والمسيح وغوته ونابليون وكازانوفا. إذ كما أوضحت لك، حتى نفهم حقيقة الطاعون الروحي، علينا أن ندرسه من كل الجوانب. هذا، كان شيئا جديدا بالنسبة لك، أيها القاضي الصغير.

"اسجنوه! إنه فاشي! إنه يحتقر الشعب!" لست "الشعب" أيها الرجل الصغير. أنت محتقر للشعب، ذلك لأنك لا تمثل

قانونه ولكن فقط نجاحك الوظيفي. حتى هذا الشيء، قاله لك رجال كبار لا حصر لهم ولا عد. لكنك لم تقرأ ذلك يوما، أيها الرجل الصغير، إني أعرف ذلك!

إني أكن للشعب الاحترام الكبير، حتى أني أعرض نفسي لمخاطر كثيرة من أجل أن أقول له الحقيقة. بإمكاني أن ألعب معك البريدج، وأن أعيد عليك النكات الشعبية الغبية. لكني لا أجلس معك إلى نفس الطاولة. ذلك أنك مدافع سيئ عن إعلان الحرية الأمريكي!

"إنه تروتسكي! اسجنوه! إنه يحرض الشعب، هذا الكلب الأحمر!"



اهدأ قليلا، أيها الرجل الصغير! إنني لا أحرض الشعب، ولكني أحرض وعيك، وإنسانيتك، ولكنه شيء لا تحتمله. لأنك تريد أن تتفوق في مهنتك، وأن تحصل على الأصوات الكافية حتى تصبح نائبا عاما أو قائدا لكل البروليتاريا. قانونك وعبادتك للشخصية هي حبل المشنقة الذي يستدير بعنق العالم، أيها الرجل الصغير. ماذا فعلت بويلسون، هذا الرجل الكبير، والطيب، أيها الرجل الصغير؟ لقد كان بالنسبة لك أيها القاضي، إنسانا "خياليا"، وبالنسبة لك أيها الزعيم المستقبلي لبروليتاريا كل العالم "سارقا للشعب". قتلته، أيها الرجل الصغير. قتلته بلامبالاتك، وثرثرتك، بخوفك من أملك!

وأوشكت أن تقتلني، أيها الرجل الصغير!

أتذكر مختبري قبل عشر سنين؟ كنت موظفا عندي كتقني. لقد اقترحوك علي، لأنك كنت عاطلا عن العمل. واقترحوك أيضاً لأنك كنت اشتراكيا كبيرا، وعضوا بحزب الحكومة. ولقد حصلت مني على اجر جيد، وتمتعت في عملك بكامل الحرية. ولقد اخذتك معي إلى كل الاجتماعات، لأني كنت اومن بك، وبمهمتك. امازلت تذكر أيها الرجل الصغير، ما الذي جرى بعد ذلك؟ كنت اراك طيلة اليوم، لا تفعل شيئا اكثر من التجول، واضعا غليونك في فمك. لم افهم، لماذا توقفت عن العمل. واذا ما حضرت باكرا إلى المختبر، انتظرت تحيتي

بطريقة مستفزة. انني ابادر عن طيب خاطر، بالتحية، أيها الرجل الصغير. ولكن اذا ما انتظر المرء حتى أن احييه، اغضب، ذلك أني في فهمك للأشياء "الاكبر سنا" و"رئيس العمل". اتركك تعبث بحريتك لأيام أخرى. ثم ابادر بالحديث معك. فتعترف لي، وعيونك مغرورقة بالدمع، بأنك لم تفهم شيئا من النظام الجديد للعمل. لم تكن متعودا على الحرية. في وظائفك السابقة، لم يسمح لك بالتدخين في وجود رئيسك. ولم يسمح لك بالكلام، الا اذا تم سؤالك، انت أيها الزعيم المستقبلي لكل البروليتاريا. والآن وقد حصلت على حريتك، تتصرف بطريقة وقحة ومستفزة. لقد فهمتك، لهذا لم اطردك من العمل. وبعد ذلك رحلت بعيدا، وحكيت لطبيب شرعي عن تجاربي. كنت الواشي السري، احد المنافقين والغدارين، الذين حرضوا الجرائد ضدي. هكذا انت، أيها الرجل الصغير، اذا ما تمتعت بحريتك. لكن حقدك دفع بعملي الجدي رغما عنك، عشر سنين إلى الأمام.

لهذا فاني اودعك أيها الرجل الصغير. لا أريد ان استمر في خدمتك، كما لا اريد بسبب من اهتمامي بك، ان ينتهي بي الأمر إلى الموت. لا يمكنك ان ترافقني إلى الابعاد المفتوحة، التي اسافر اليها. كنت ستشعر بخوف قاتل، لو انك شعرت بما يعده المستقبل لك. ذلك انك ستتولى حكم العالم، أيها

الرجل الصغير! هذا امر لا بد منه. ابعادي الوحيدة، هي جزء من مستقبلك. لكني، لا اريدك اليوم رفيقا لي في السفر. كرفيق سفر، انت غير خطر فقط حين الذهاب إلى البار، ولكن حيث اريد الذهاب، قطعا لا.

"اقتلوه! انه يسخر من الحضارة، التي بنيتها انا، انا رجل الشعب الصغير. انا رجل حر في ظل ديمقراطية حرة.... عاش.. عاش.. عا...! "

أنت لا شيء أيها الرجل الصغير، "لا شيء! لست انت من بنى هذه الحضارة، بل فقط القليل من اسيادك المحترمين. انك لا تعرف قط ما تبني، حين تقف في مكان السقالة (البناء) واذا ما قلت لك أو أحدٌ غيري:

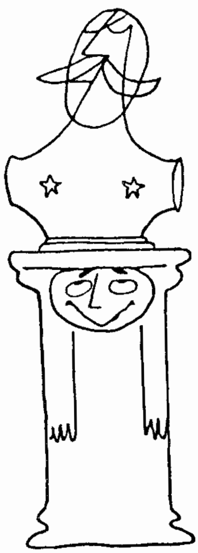
"تحمل مسؤولية بنائك" شتمتني قائلا: "خائن البروليتاريا" وعدوت خلف أب البروليتاريا، الذي لا ينطق بمثل كلامك هذا.

لست حرا أيها الرجل الصغير ولا تحس بمعنى الحرية. كما لا تعرف كيف تعيش الحرية. من نشر في اوروبا طاعون السلطة؟ أنت أيها الرجل الصغير! وفي أمريكا؟ تذكر: ويلسون...

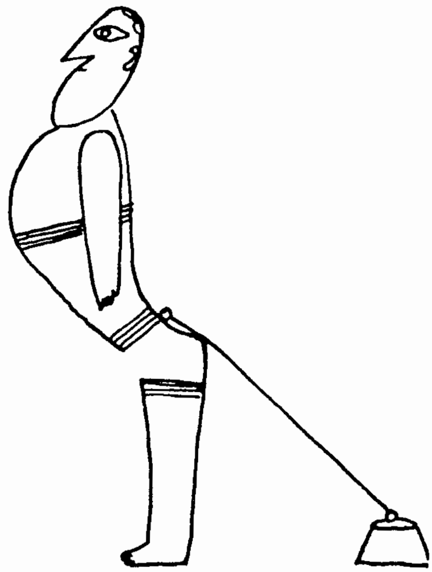
"اسمعوا، انه يتهمني، أنا الرجل الصغير! من أكون وأي سلطة لي، حتى أقف حجر عثرة أمام رئيس أمريكي؟ إنني اؤدي واجبي وأخضع لقوانيني ولا أحشر نفسي في

السياسة..."

ولما دفعت بآلاف الرجال والنساء والأطفال إلى غرف الغاز، أ كنت تتبع فقط تعليمات رؤسائك، أيها الرجل الصغير؟ انك جد طيب، حتى أنك لم تكن تعرف ما يحدث. أليس هذا صحيحا؟ وكنت فقط إنسانا مسكينا، لا يملك حق الكلام ولا حق أن يكون له رأي خاص به ومن تكون أنت حتى تحشر نفسك في السياسة... أعرف، أعرف! لقد سمعت ذلك مرات كثيرة! لكني اللحظة أسأل: لماذا لا تؤدي واجبك أيضاً في صمت، لما يقول لك عالم بأنك مسؤول عن غرائزك أو حين



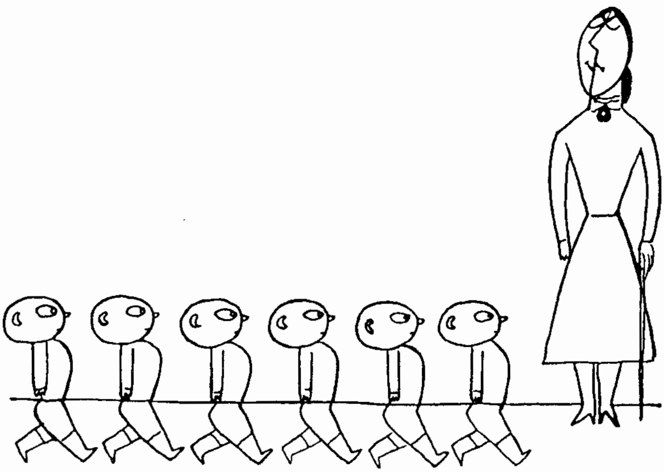
يدعوك إلى عدم ضرب أطفالك؟ أو إذا ما لقنك لآلاف المرات بضرورة عدم اتباع ديكتاتوريك؟ أين يبقى إذن واجبك، طاعتك الطيبة؟ لا، أيها الرجل الصغير، إنك لا تسمع حيث الحقيقة تتكلم، إنك لا تصغي بانتباه إلا حيث تسود الضجة والزمجرة. لتصرخ بعد ذلك بحياة الزعيم! إنك جبان ومتوحش أيها الرجل الصغير، بدون أدنى إحساس بواجبك أن تكون إنسانا وأن تحافظ على الإنسانية. إنك تقلد بطريقة سيئة الرجل الحكيم ولكن بطريقة جيدة اللص. أفلامك وبرامج إذاعتك مليئة بقصص الموت!



وسوف تجر نفسك وأعمالك الصغيرة عبر القرون، بدل أن تصبح سيد نفسك. لهذا السبب أبتعد عنك حتى أخدم مستقبلك بطريقة جيدة. ذلك أنه ليس باستطاعتك أن تلحق بي ضررا حين أبتعد عنك، وسوف تحترم أعمالي وهي بعيدة. ما هو قريب منك، تحتقره! لهذا السبب ترفع جنرالك أو مارشال كل البروليتاريا فوق منبر، حتى تستطيع احترامه. ولهذا السبب يحافظ الرجل الكبير على نفسه بعيدا عنك، منذ أن بدأ العالم بكتابة تاريخه.

"لقد أصبح مجنونا كبيرا، أحمق، أحمق كليا!"

أعرف، أيها الرجل الصغير، أنك تتسرع دائما في إطلاق وصف الأحمق، إذا لم ترق لك حقيقة ما. وتحس بنفسك "كرجل طبيعي"! الحمقى سجنتهم، والرجال الطبيعيون يحكمون العالم... ولكن من هو المسؤول عن هذه المصائب التي ألمت بالعالم؟ ليس أنت، أعرف، فأنت لا تقوم سوى بمهمتك، ومن تكون أنت، حتى يكون لك رأيك الخاص بك. أعرف ذلك! لا تحتاج لتكراره. وإذا ما فكرت بأطفالك، اذا ما فكرت بتعذيبك لهم، حتى تصنع منهم رجالا طبيعيين، فإنه يحتمل أن اقترب أكثر منك، لكي أمنعك من ارتكاب هذه الجريمة. لكنك حصنت نفسك بمكتب وزاري للتربية. حتى هذا أعرفه.



أريد أن أقودك عبر دروب هذا العالم، أيها الرجل الصغير، وأن أريك كيف أنت، وكيف كنت في الحاضر والماضي، بفيينا، لندن وبرلين، كممثل "للإرادة الشعبية"، كرجل دين. إنه بإمكانك أن تجد نفسك في كل مكان، وبإمكانك أن تتعرف على نفسك، سواء كنت فرنسيا أو ألمانيا أو...، إذا ما امتلكت شجاعة، التحديق بذاتك.

"إنه يحط من شرفي! ويسخر من مهمتي!"

إنني لا أحط من شرفك ولا أسخر من مهمتك، أيها الرجل الصغير. سأكون جد سعيد، لو أنك علمتني شيئا جيدا، لو أنك أقنعتني بأن باستطاعتك رؤية نفسك والتعرف عليها. أن تقدم

أدلة كما يفعل البناء الذي يبني بيتا . البيت يجب أن يكون مرئيا وقابلا للسكن. البناء ليس له الحق في أن يصرخ "إنه يسخر من شرفي"، إذا ما أثبت له بأنه يتحدث فقط عن مهمة البناء، دون أن يبني بيتا واحدا. هكذا يتوجب عليك أن تقدم الحجج الكافية بأنك حامل مستقبل البشرية. لا يمكنك أن تختفي في جبن خلف "شرف الأمة" أو "البروليتاريا". ذلك لأنك كشفت نفسك إلى ابعد ألحدود، أيها الرجل الصغير.

إنني راحل عنك، أقول لك. لقد كلفني هذا الرحيل عنك سنوات كثيرة وليال مؤلمة لم يغمض لي فيها جفن. زعماؤك المستقبليون لا يشبهونني في شيء. إنهم اليوم زعماءك وغدا سيتحولون إلى كتاب تافهين في جريدة ما. إنهم يغيرون معتقداتهم كما يغيرون ملابسهم. أما أنا فإني لا أغير أفكاري كما أغير ملابسي المتسخة. إنني أتمسك بك وبمستقبلك. ولكن لأنك لا تحترم كل من يحاول الاقتراب منك، قررت الرحيل. حفيدك سيكون ثمرة جهودي. إنني أعرف ذلك. وإني أنتظر أن يتمتع بثمار أعمالي، تماما كما انتظرت ذلك منك منذ ثلاثين سنة. لكنك ظللت تصرخ بحياة الزعيم أو "لتسقط الرأسمالية" أو "ليسقط الدستور الأمريكي".

اتبعني أيها الرجل الصغير، إنني أريد أن أطلعك على صور لك. لا تهرب! إنه أمر قبيح، لكنه في نفس الوقت علاج ولا يمثل

خطرا على الحياة!

منذ ما يقرب من مائة سنة، تعلمت أن تردد كالببغاء ادعاء الفيزيائيين وعلماء الميكانيكا بأنه لا وجود للروح. ثم جاء رجل كبير وكشف لك روحك، لكنه لم يعرف كيف يوضح لك العلاقة بينها وبين جسدك. فقلت: "شيء مضحك! التحليل النفسي! إنه لشيء مضحك! دجل! بإمكان المرء أن يحلل البول ولكن ليس الروح!" هكذا تكلمت، ذلك لأنك لم تعرف عن الطب سوى تحاليل البول. واستمر النضال من أجل روحك أربعين سنة. أعرف هذا النضال، ذلك أنني أيضاً خضته من أجلك. مرة اكتشفت، بأنه بإمكان المرء أن يربح مالا كثيرا بروح الإنسان المريضة. على المرء فقط أن يستقبل لبضع سنوات إنسانا مريضا ساعة كل يوم، وأن يطالبه بدفع مقدار من المال.

هنا وفقط هنا، ليس قبل ذلك، بدأت تعتقد بوجود الروح، لكن دون أن تعتقد بجسدك. واكتشفت بأن روحك هي وظيفة لطاقتك الحيايتة وأن هناك وحدة بين روحك وجسدك. واقتفيت هذا الأثر واكتشفت بأن طاقة الحياة لديك تتفتح وتزهر إذا ما أحسست بنفسك حيا ومرتاحا ولكن أيضاً بأنها تنطوي على نفسها في أعماقك إذا ما شعرت بالخوف. لكنك حكت مؤامرة صمت على اكتشافي طيلة خمس عشرة سنة. أما أنا فقد

تابعت اقتفائي للأثر الذي عثرت عليه واكتشفت بأن طاقة الحياة التي أسميها أورغون، موجودة أيضاً خارج جسدك، في الطبيعة. وتمكنت من رؤيتها في الظلام ومن ابتكار الوسائل التي مكنتني من التعرف عليها. وفي الوقت الذي كنت تلعب فيه النرد وتثرثر حول السياسة أو تعذب زوجتك أو تحطم آمال أطفالك، كنت أجلس في الظلام، سنتين طويلتين، يوميا لساعات طويلة وتأكدت بأني اكتشفت طاقة حياتك. وأطلعت الكثير على ذلك، فوقفوا بأعينهم على حقيقة الأمر.

وإذا حدث وكنت طبيبا، يعتقد بأن الروح إفراز جسدي، فإنك تقول لأحد مرضاي الذين عالجتهم بأن نجاحي هو مجرد "اعتقاد"، وإذا ما كنت تعاني صدفة من الشك والخوف في الظلام، تقول عن الاكتشاف الذي رأيته أمام عينيك بأنه مجرد "اعتقاد" وأن الأمر أشبه بجلسة أرواح. هكذا أنت أيها الرجل الصغير! ثم تثرثر في هدوء وبلا أمل حول الروح سنة ١٩٤٦، تماما كما أنكرتها سنة ١٩٢٦ وظللت دائما الرجل الصغير نفسه. سنة ١٩٨٤ سوف تربح الكثير من المال بسبب الأورغون. وسوف تعمد إلى تلويث والثرثرة والشك والشماتة بأية حقيقة أخرى، تماما كما فعلت ذلك سابقا بالروح وباكتشاف الطاقة الكونية. وظللت دائما الرجل الصغير، الرجل "النقدي" الصغير، الذي يصرخ هنا وهناك بحياة

الزعيم. أما زلت تذكر، لما كنت تؤلف نكاتاً غبية حول اكتشاف أن الأرض ليست ثابتة وأنها تدور، فقلت بأن كؤوس الشراب عليها أن تتأرجح إلى أعلى وأن تسقط؟ حدث ذلك منذ أربعة قرون، أيها الرجل الصغير! أعرف أنك نسيت ذلك! عن نيوتن تعرف فقط أنه رأى تفاحة تسقط أرضا وعن روسو فقط دعوته إلى العودة إلى الطبيعة وعن داروين فقط "الصراع من أجل البقاء" وليس انحدارك عن قرد وعن مسرحية "فاوست" لغوته التي تحب دائما ترديد مقاطع منها، فهمت فقط قدر ما يفهمه قط من علم الرياضيات. غبي أنت ومغرور، أيها الرجل الصغير. تمر بجوهر الأشياء دون أن تلقي عليه نظرة جدية وتظل متمسكا في إصرار بالخطأ. لقد سبق أن قلت لك ذلك.

نابليونك، هذا الرجل الصغير بأشرطته الذهبية الذي لم يتبق شيء منه سوى الخدمة العسكرية الالزامية، تتحدث عنه في كتبك بحروف من ذهب. ولكن كبلر، الذي تنبأ بأصلك الكوني، تصمت عنه كتبك. لهذا السبب أنت الآن وستظل غارقا في الوسخ، أيها الرجل الصغير!

لهذا السبب ألومك عن حق، إذا اعتقدت بأني أنفقت ٢٠ عاما من الجهد والمال، لكي "أوحي" لك بوجود الطاقة الكونية. لا، أيها الرجل الصغير، لقد تعلمت كيف أعالج الطاعون المستبد بجسدك، لما كنت أضحي بكل شيء. إنك لا تعتقد

الآن بذلك، إذ أني سمعتك تقول في النرويج: "من ينفق كل هذا المال على التجارب، لا بد أن يكون مجنونا" لقد فهمتك: إنك تحكم على الأشياء انطلاقا من نفسك. تستطيع فقط أن تأخذ لا أن تعطي. لهذا من الصعب عليك أن تتصور إنسانا يجد متعته في العطاء، كما أنه من الصعب عليك أن تتصور أنه بإمكان المرء أن يكون رفقة امرأة دون أن يبدأ للتو بـ...

كنت سأكن لك كل الاحترام، لو كنت لصا كبيرا لسعادتك. ولكنك لص صغير وجبان. أنت ذكي وشاطر ولكن روحك مسدودة، لا تحب أن تخلق شيئا. لهذا السبب تسرق عظمة وتنزوي بها في ركن لتفترسها. لقد قال ذلك فرويد يوما. إنك تتربص بالإنسان الكريم والمتبرع المبتهج وتمتصه عن آخره. تشرب حتى الامتلاء من علمه وسعادته .وسموه، لكنك لا تستطيع أن تهضم ما التهمته. تتغوطه مباشرة وتفوح رائحته كريهة. إنك تدنس الرجل الذي أحسن إليك وتسميه أحمقا أو دجالا أو خداع صبيان...

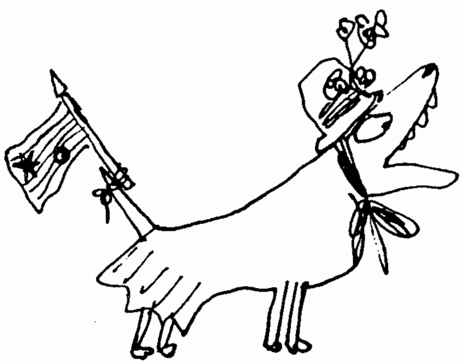
توقف! "خداع الصبيان"! أتتذكر أيها الرجل الصغير (كنت يومئذ رئيسا لجمعية علمية) يوم اغتبتني وقلت أنني أترك أطفالي يتفرجون علي لحظة الجماع؟ كنت يومئذ قد نشرت للتو بحثي حول الحقوق التناسلية للأطفال. ومرة أخرى، هل ما زلت تتذكر (لقد كنت يومئذ رئيسا" لجمعية ثقافية" في

برلين)، كيف أذعت حولي إشاعة أني أغرر بالفتيات الصغيرات وأخذهم معي على متن السيارة إلى الغاب! لم أغرر أبدا بفتيات صغيرات، أيها الرجل الصغير، إن هذا خيالك المتسخ وليس خيالي. أحب زوجتي أو طفلتي، إنني لست مثلك، أنت الذي لا تستطيع أن تحب زوجتك ولهذا تحب أن تغرر بالطفلات الصغيرات وتأخذهن إلى الغاب.

وأنت أيتها الفتاة الناضجة، ألا تحلمين ببطل الأفلام؟ ألا تعلقين صورته فوق سريرك ليلا؟ ألا تتزلفين إليه وتغررين به، بحجة أنك بلغت الثامنة عشرة؟ وبعد ذلك، ألا تذهبين إلى المحكمة لتتهميه باغتصابك، بطلك؟ وسوف يبرئونه أو يحكمون عليه، وجداتك سيقبلن يديه، يدي بطل السينما! أتفهمين، أيتها الفتاة الصغيرة!

كنت تريدين النوم مع بطل السينما المشهور، لكن لم تكن عندك الشجاعة لتتحملي بنفسك مسؤولية ذلك، لذلك تحملينه إياها، أيتها الفتاة المسكينة المغتصبة! أو أنت أيضاً، أيتها المرأة المسكينة، المغتصبة، التي تمتعت بالجنس رفقة سائقها الأسود أكثر من رفقة زوجها. ألم تغرري بالسائق الأسود الخارج لتوه من الأدغال، أيتها المرأة الشقراء الصغيرة؟ ألم تتّهميه باغتصابك، أيتها الكائن المسكين، الذي لا نصير له، ضحية "أحط الأعراق السوداء"؟ لا، لقد كنت

طاهرة، بيضاء وعضو في هذه "الجمعية الثورية أو تلك" امرأة من الشمال أو من الجنوب، أصبح جدها غنيا بفضل تجارة العبيد، الذين كان يرحلهم من غابات أفريقيا مسلسلين إلى أمريكا. كم أنت مسكينة وطاهرة وبيضاء وغير راغبة البتة بإنسان أسود، امرأتي الصغيرة! أيتها الجبانة، الحقيرة، بنت عرق مريض من صيادي العبيد، سليلة كورتيث المتوحش، الذي استدرج آلاف من الأزتك السذج إلى الفخ، ليطلق عليهم النار!



ماذا فهمتن من تحرر المرأة؟! آخ، أنتن يا بنات هذه الثورة أو تلك، ماذا فهمتن من آمال الثوار الأمريكان، من لنكولن الذي حرر عبيدكن والذين سلمتنهم إلى "السوق الحرة". فلتحدقن بأنفسكن في المرآة، بنات الثورات المحبوبة؟

ستتعرفن من جديد على "بنات الثورة الروسية"، أنتن الفتيات المسكينات، اللاهثات!

لو أنكن قدمتن ولو مرة واحدة الحب لرجل واحد، لتم إنقاذ حيوات بعض السود أو اليهود أو العمال! كما تقتلن الحياة بأطفالكن، كذلك تقتلن في الرجل الأسود الحب، بورنوغرافيتكن الماجنة وخيالاتكن الجنسية المنحطة! أنا أعرفكن، نساء وفتيات الأسواق المالية. أية نذالة بعيدة الغور تستنبتن بأعضائكن التناسلية الميتة! لا، يا بنات هذه الثورة أو تلك، ليس لي نية أن أصبح كوميسار، إنني أترك ذلك لحيواناتكن القاسية، أصحاب البدلات العسكرية. إني احب طيري وغزالي وعرستي، الذين هم قريبون من الرجل الأسود! أعني بذلك أسود الأدغال وليس الأسود الذي يسكن بالهارلم، المنتفخ الأوداج والذي يرتدي بذلات زوت! لا أعني بذلك النساء الإفريقيات السمينات، ذوات الحلق، اللواتي تحولت رغباتهن الجنسية المكبوتة إلى شحم بخواصرهن، اللواتي اكتشف المسيح رغبتهن. إني أعني بكلامي الرشيقات، الناعمات ذوات الأجساد المطواعة، بنات بحر الجنوب، اللواتي تطاردهن أنت أيها الخنزير الجنسي بهذا الجيش أو ذاك، الفتيات اللواتي لا يعرفن أنك حين تأخذ حبهن فإنك تفعل كما لو أنك في ماخور بدنفر.

لا، بنيتي، أنت تلهثين خلف الكائن الحي، الذي لم يفهم بعد أنه مستغل ومحتقر! ولكن زمنا قد بدأ! كألمانية عنصرية توقفت عن العمل. ولكنك مازلت تعيشين كفتاة روسية طبقية أو كبنت للثورة الأمريكية. بعد ٥٠٠ أو ١٠٠٠ سنة، سوف لن يبقى منك سوى تذكار غريب، حين يشرب شبان وشابات بأجساد سليمة نخب الحب ويعملون على حمايته!

ألم تمنعي ماريان آندرسون، الصوت الحي، من الغناء بقاعاتك، أيتها المرأة الكسولة؟ منك لن يتبقى أثر على هذا الكوكب، حين يغني بعد مئات القرون اسم ماريان آندرسون! أتساءل، إن كانت ماريان آندرسون بعد قرون سوف تفكر أم انها ستحرم أبناءها من الحب! لا أدري! الكائن الحي ينطلق في اندفاعات صغيرة أو كبيرة! وهو يكتفي بما يتركه حيا. ولكنك لن تعيشي أيتها المرأة السرطانية.

لقد نشرت الحكاية ورجلك الصغير التهمها بجلدها وشعرها بأنك أنت المجتمع، أيتها المرأة الصغيرة. صحيح أنك تعلنين يوميا على صفحات الجرائد المسيحية واليهودية، متى ستعانق ابنتك رجلا ولكن هذا لا يثير اهتمام أي رجل جدي. المجتمع هو أنا والنجار والبناء والبستاني والمعلم والطبيب وعامل المصنع! هذا هو المجتمع وليس أنت أيتها المرأة الصغيرة، المتصلبة، المتنكرة! لست أنت الحياة، بل

أنت لعنتها الكبرى ولكني أعرف لماذا تنسحبين إلى قلعتك بمال كثير! ليس بإمكانك أن تقومي بشيء أمام تفاهة النجار والبستاني والطبيب والمعلم والبناء وعامل المصنع! لا شيء آخر، أقول! لقد كان هذا عملك الأكثر حكمة في ظل هذا الطاعون! ولكن صغرك وتفاهتك عرفا طريقهما إلى عظامك وبطنك ومفاصلك وقناعك وحرمانك! أنت تعيسة أيتها المرأة الصغيرة المسكينة، فأبناؤك فاسدون وبناتك تحولن إلى مومسات وزوجك جفت عروقه وحياتك تعفنت! ليس بإمكانك أن تحكي لي أي حكاية، يا بنت الثورة الصغيرة! لقد رأيتك عارية!

لقد كنت وما زلت جبانة، يا بنت هذه الثورة أو تلك. لقد كنت تمسكين بحظ البشر بين يديك ولكنك ضيعته! لقد ولدت رؤساء وجهزتهم فقط بالتفاهات! أنت تصورين وتزينين وتضحكين دائما ولكنك لا تملكين شجاعة تسمية الحياة باسمها، أيتها البنت الصغيرة للثورة! كان العالم بين يديك وفي النهاية أطلقت قنابلك النووية على هيروشيما وناكازاكي، ابنك هو الذي ألقى بها على سبيل التجربة! لقد ألقيت بشاهدة قبرك، أيتها المرأة الصغيرة السرطانية! لقد بعثت بكل طبقتك وعرقك إلى قبر أبدي وأخرس! ذلك أنه لم يكن عندك شعور بالإنسانية حتى تحذري النساء والأطفال والشبان في

هيروشيما وناكازاكي. كنت عاجزة أن تكوني إنسانية! لهذا السبب سوف تغوصين، في صمت، مثل حجرة تغرق في الماء. ليس مهما فيما تفكرين وماذا تقولين، أيتها المرأة الصغيرة، التي قذفت إلى الحياة بجنرالات أغبياء. بعد ٥٠٠ عام سوف يضحك المرء منك ويندهش. وإنها لقطعة من بؤس العالم أن المرء لا يندهش اللحظة منك ويضحك!

أعرف، أعرف أيتها المرأة الصغيرة، كل المظاهر تتكلم لصالحك: "الدفاع عن الوطن" الخ...! لقد سمعت ذلك من قبل في النمسا القديمة. هل سمعت من قبل سائق حنطور نمساوي يصرخ: "هيا يا قيصري"؟ لا؟ طيب، يكفي أن تصغي إلى نفسك، إنها نفس الموسيقى! لا أيتها المرأة الصغيرة، لا أشعر بالخوف منك. لا يمكنك أن تفعلي شيئا ضدي. أجل، إن زوج ابنتك نائب عام في دائرتي، أو حفيدك مفتش للضرائب في مدينتي. سوف تعزمينه على شاي وتنطقين كلمة سيئة بحقي. إنه يريد أن يصبح رئيسا لمفتشية الضرائب أو رئيسا للبلدية، وهو يبحث عن ضحية "للقانون والنظام" أعرف، أعرف كيف يحدث ذلك! ولكن هذا لن ينقذ رقبتك، أيتها المرأة الصغيرة! حقيقتي أقوى منك.

"إنه تحيز وتعصب! أليس لي أدنى دور في المجتمع؟"

لقد سبق وقلت لك في أي وقت تكون فيه غبيا وصغيرا، أيها

الرجل الصغير وأنت أيضاً أيتها المرأة الصغيرة. وحول جدواك وأهميتك لم أتكلم بعد. أتعتقد بأني كنت سأكتب هذا الخطاب الخطير إليك، لو لم تكن ذا أهمية؟ وأمام معناك ومسؤوليتك الكبيرة تظهر صغائرك وغباواتك أكثر خطرا. إنهم يقولون: إنك غبي، أما أنا فإني أقول: إنك ذكي، لكن جبان. إن المرء يقول إنك سماد المجتمع الإنساني وأنا أقول بأنك بذوره. إنهم يقولون: الثقافة احتاجت إلى عبيد. وأنا أقول: بالعبيد لن يبني المرء ثقافة اجتماعية. هذا القرن العشرين الرهيب، لقد سخر من كل النظريات الثقافية منذ أفلاطون. إن الثقافة الإنسانية لم تتحقق بعد أيها الرجل الصغير! إننا بعد في بداية محاولتنا لفهم الانحراف الرهيب والتحول المريض للحيوان البشري. وكما هي العلاقة بين أول عجلة تم اكتشافها قبل آلاف السنين وقاطرة الديزل، كذلك هو الشأن بالنسبة لهذا الخطاب وعلاقته بالثقافة القادمة في ألف سنة أو خمسة آلاف سنة.

إن تفكيرك قصير النظر، أيها الرجل الصغير. إنك تفكر فقط من وجبة الفطور وحتى وجبة الغداء. يجب أن تتعلم كيف تفكر قرونا إلى الوراء وقرونا إلى الأمام. يجب أن تتعلم كيف تفكر في تطورك من قطع البروتوبلازما الصغيرة وحتى الحيوان الذي يمشي على قدمين، إلى الحيوان الذي يفكر.

إنك لا تذكر الأشياء التي وقعت منذ عشر أو عشرين سنة، ولهذا السبب تكرر نفس الأخطاء التي اقترفتها منذ ألفي سنة. وتستمر متمسكا بتفاهاتك: "العرق"، "الطبقة"، "الأمة"، القهر الديني وحظر الحب، مثلما تتمسك قملة بفرو. كما أنك لا تملك شجاعة ملاحظة كيف أنت غارق إلى الأعماق في مستنقع البؤس. أحيانا ترفع رأسك إلى خارج المستنقع لكي تصرخ بحياة الزعيم! نقيق الضفادع في الوحل أقرب منك إلى الحياة.




"لماذا لا تنقذني من الوحل؟ لماذا لا تشارك في اجتماعاتي الحزبية والبرلمانية والحكومية؟ إنك ناكر لجميل! ناضلت يوما من أجلي وتألمت بسببي وضحيت والآن تشتمني!"

إنني لا أستطيع تحريرك من وسخك، أنت وحدك من يستطيع ذلك. لم أشارك قط في اجتماعاتك الحزبية والبرلمانية والحكومية، لأنه في هذه الاجتماعات، تتم مناقشة الأشياء التافهة فقط وليس الأشياء المهمة. صحيح، لقد ناضلت خمسا وعشرين سنة من أجلك، وضحيت بوظيفتي وبحرارة العائلة في سبيلك. تبرعت بالكثير من المال من أجل جمعياتك وشاركت في إضرابات الخبز. صحيح أيضا أنني عملت كطبيب آلاف الساعات من أجلك بدون مقابل ومن أجلك وبدلا عنك تمت مطاردتي من بلد إلى آخر، في الوقت الذي كنت تصرخ فيه بصوت حديدي "يحيا الزعيم". لقد كنت مستعدا للموت من أجلك في نضالي ضد الطاعون السياسي، في وقوفي إلى جانب أطفالك في المظاهرات ضد رجال السلطة ولما أنفقت كل مالي من أجل فتح مكاتب للإرشاد، تنصحك وتأخذ بيدك. لكنك كنت تأخذ دائما دون أن تعطي شيئا. كنت تريد فقط أن تنقذ نفسك ولم تأت بفكرة واحدة خلال ثلاثين سنة من الطاعون. ولما انتهت الحرب الثانية وجدت نفسك في نفس المكان الذي كنت فيه حين اندلاعها. قليلا إلى "اليسار"، لا إلى "اليمين" ولكن ولا ميلمتراً واحداً إلى الأمام!.. قامرت بالثورة الفرنسية، أما الثورة الروسية، فقد حولتها إلى غول يرعب العالم. فشلك هذا، فشلك المريع، الذي لا يمكن أن

تفهمه سوى القلوب الكبيرة، دون أن تصب غضبها عليك، دون أن تحتقرك... فشلك هذا، نتيجة لفشل كل العالم، وجزء من العالم الذي كان مستعدا للتضحية بكل شيء في سبيلك. فمن فمك لم تخرج سوى جمل عبر كل هذه السنوات الرهيبة ولكن ولا كلمة واحدة مفيدة ومنطقية.

لم أفقد الشجاعة، إذ أنني تعلمت خلال ذلك أن افهم مرضك بعمق. تعلمت أنه لم يكن باستطاعتك أن تفكر وتتصرف إلا كما كنت تفكر وتتصرف. تعرفت على الخوف الكبير من كل ما هو حي بداخلك. إنك لا تفهم أنه عبر الفهم يأتي الأمل. لأنك تنفخ الأمل فقط بداخلك وليس بخارجك. لهذا السبب تسميني "متفائل" أمام التعفن الكامل لعالمك، أيها الرجل الصغير. أجل، أنا متفائل ومؤمن بالمستقبل. لماذا تسأل؟ أريد أن أقول لك سبب ذلك:

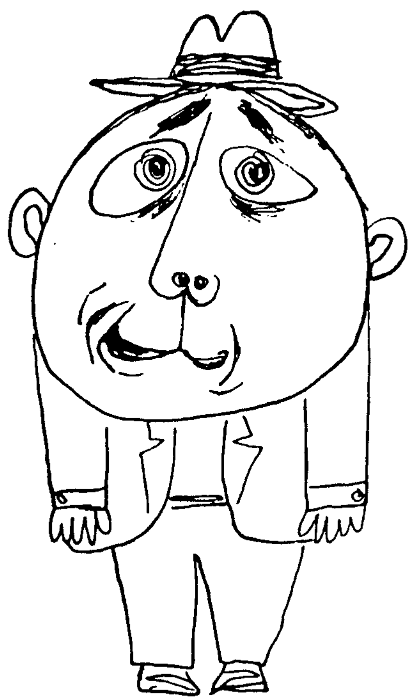
كلما تعلقت بك أكثر، كما كنت، وكما أنت، يهوي على غباؤك بضربة قاصمة على الرأس. آلاف المرات نسيت ما اقترفته بحقي وأنا أحاول مساعدتك. وآلاف المرات تذكرني بمرضك، إلى أن فتحت عيني وحدقت بك في وجهك. في البداية ركبني إحساس بالاحتقار والحقد تجاهك، لكن مع الوقت تعلمت كيف أترك فهمي لمرضك يتغلب على حقدي واحتقاري لك. ولم أشعر بعد ذلك بالغضب عليك بسبب من الحرب العالمية

الأولى التي مرّغت وجه العالم بالوحل. لقد فهمت بأن ذلك كان هو المجرى الطبيعي للأمور، ما دمت حرمت طوال سنين من أن تعيش الحياة كما هي.

لقد اكتشفت القانون الوظيفي للحياة، يا عزيزي الرجل الصغير، في الوقت الذي كنت مازلت تصرخ "أحمق، أحمق!" يومذاك كنت صدفة طبيبا روحيا، مع ماض عريق في حركة الشبيبة ومرض قلبي ينتظرك في المستقبل، ذلك أنك كنت عاجزا جنسيا.

وتوفيت بعد ذلك بقلب محطم، ذلك أن المرء لا يسرق دون أن يعاقب ولا ينكر الحقيقة دون أن يتعرض لخطر الموت، لو كان يملك ذرة شرف واحدة. وقد امتلكت ذرة الشرف هذه في ركن صغير بروحك. ظننت أني ميت ومنته. يوم انطلقت من صديق إلى صديق، لما حاولت السماح لي بخطوة أخيرة، لأنك كنت تعرف أني على صواب وأنه لم يكن بإمكانك فهمي. ولما عدت مرة أخري مثل إنسان بعث من جديد، هذه المرة أقوى، أوضح وأشد مضاء من السابق، ارتعبت مني، وأسلمت روحك. ورأيت قبل أن تموت أني تجاوزت الفخاخ التي نصبتها حتى أسقط فيها. ألم تعلن فكرتي في منظمتك على أنها فكرتك؟ أقول لك اللحظة بأن أشراف الرجال كانوا يعرفون ذلك. أعرف ذلك، لأن المرء أفشى إلي ذلك. لا،

بالتكتيك لا يمكن للإنسان أن يصل سوى إلى المقبرة، أيها الرجل الصغير وذلك في وقت مبكر جدا.



ولأنك تمثل خطرا على الحياة ولأن المرء بقربك لا يمكنه أن يظل متمسكا بالحقيقة، دون أن تصيبه رصاصة في الظهر أو

يقذف وجهه بالقاذورات، نأيت بنفسي عنك. أعيد ذلك مرة أخرى، لقد نأيت بنفسي عن حاضرك وليس عن مستقبلك، ليس عن إنسانيتك ولكن عن لا إنسانيتك وصغارك!

إنني مستعد للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل ما هو حي في الحياة، ولكن أبدا ليس في سبيلك، أيها الرجل الصغير! منذ وقت قصير فقط تجلى لي الخطأ الذي ارتكبته منذ ٢٥ سنة: لقد وهبتك نفسي وحياتي ظنا مني أنك تمثل الحياة والاستقامة والمستقبل والأمل. ومثلي بحث رجال كبار عن ما هو حي بداخلك وملّوا من العثور عليه. كل الذين حاولوا ذلك، قضوا نحبهم. لقد وجدت ذلك، وقررت ألا أموت في سبيل ضيق أفقك وصغارك. ذلك لأنه أمامي أشياء كثيرة أقوم بها. لقد اكتشفت "الحي" أيها الرجل الصغير. الآن لا أخلط بينك وبين "الحي"، الذي أحسست به في داخلي وبحثت عنه عندك.

والآن إذا ما استطعت التفريق بوضوح وصرامة بين طريقة الحياة الحية وطريقتك في الحياة أيها الرجل الصغير... سأكون قد أديت عملا جليلا لصالح أمن ما هو حي ولمستقبلك. على المرء أن يتحلى بالشجاعة حتى يستطيع إنكارك. لكني أستطيع أن أستمر بالعمل لصالح المستقبل، لأني لا أشفق عليك، ولا أريد أن أستغلك لأحقق مجدا صغيرا

كما يفعل زعيمك.

ومنذ وقت قصير أصبح الحي يعلن عن نفسه، إذا ما تمت إساءة استغلاله. إنها بداية كبيرة لمستقبلك الكبير ونهاية رهيبة لكل أنواع صغائر الرجال الصغار!

وأثناء ذلك، تعلم المرء كيف يشتغل طاعون الروح. إنها تدعي أن بولونيا تريد الهجوم عليها، في الوقت الذي تكون فيه قد اتخذت قرارها بمهاجمة بولونيا وافتراسها عن آخرها. وهي تدعي أن منافسها يريد قتلها، في الوقت الذي تكون فيه قد حشدت سلاحها لقتله. وهي تتهم الحياة السليمة بالخلاعة الجنسية، في الوقت الذي تكون فيه قد أقدمت على القيام بعمل بورنوغرافي.



لقد اقتفى المرء الأثر، أيها الرجل الصغير، واكتشف خلف مظهرك الخارجي عوزك وحنينك إلى الشفقة. إن المرء يريدك

أن تحدد مسار العالم بعملك وإنجازاتك. لكن المرء لا يريدك أن تستبدل طاغية سيّئاً بآخر أسوأ منه. ويطالبك أن تخضع لقوانين الحياة كما تطالب أنت الآخرين بذلك وأن تطور نفسك تماما كما تنتقد الآخرين. والمرء يعرف أفضل الآن، إدمانك على التصفيق، تحررك من المسؤولية، باختصار مرضك كله الذي ينتن هذا العالم الجميل. أعرف، أعرف بأنك لا تحب سماع هذا وتفضل الصراخ بحياة الزعيم، أنت حامل مستقبل البروليتاريا أو الرايخ الرابع. لكني أعتقد مع ذلك بأنك لن تنجح بعد الآن في إفساد العالم. لقد وجدنا الطريق إلى أسرارك التي عمرها آلاف السنوات. إنك متوحش يختفي خلف قناع المجتمع والصداقة، أيها الرجل الصغير. لا يمكن أن تنفق نصف يوم رفقتي دون أن تفضح نفسك. ألا تعتقد بذلك؟ سوف أبعث الحياة بذاكرتك:

أتتذكر ذلك المساء المشمس، الجميل، لما جئتني هذه المرة كحطاب إلى بيتي، باحثا عن العمل؟ رأيت كلبي الصغير الذي تشممك في حب وقفز إليك بساقيه في فرحة، فعرفت أنه من فصيلة كلاب الصيد. قلت: "اربطه، حتى يصبح قاسيا! هذا الكلب طيب للغاية" فأجبتك: "لا أريد أن أصنع منه كلبا قاسيا. لا أحب الكلاب المتوحشة" إن لي من الأعداء أكثر منك في هذا العالم، أيها الحطاب الطيب والصغير ومع ذلك فإني

أفضل الكلب الطيب الذي يتشمم كل غريب في حب.

أتذكر يوم الأحد االمقفر، الممطر، لما أخرجني تصلبك البيولوجي من البيت إلى بار؟ كنت أجلس إلى طاولتي وأشرب ويسكي (لا، لا! لست سكيرا، أيها الرجل الصغير، حتى لو كنت أحب شرب ويسكي! "شربت جرعة وكنت أنت شيئا ما سكرانا، كنت قد عدت للتو من الحرب، سمعتك تنعت اليابانيين بـ"القرود القبيحة" ثم قلت بتعبير وجه يتوجب علي أن أعتصره منك في حجرة العلاج لكي أخلصك من طاعونك: "أتعرفون ما الذي على المرء عمله ضد هؤلاء اليابانيين بالشاطئ الغربي؟ أن يتم شنق كل واحد منهم، لكن ليس بسرعة، بل في بطء، بحيث يتم تضييق الحبل على عنقهم أكثر فأكثر كل خمس دقائق. ببطء.. ببطء شديد". تم تصور تلك الطريقة بيديك أيها الرجل الصغير. النادل يهز رأسه موافقا وكله دهشة أمام رجولتك البطولية. هل حملت يوما رضيعا يابانيا بين يديك أيها الوطني الصغير؟ لا؟ سوف تعمد عبر القرون إلى شنق وقتل الجواسيس اليابانيين والطيارين الأمريكان والفلاحات الروسيات والضباط الألمان والفوضويين الإنجليز والشيوعيين اليونان وحرقهم بالكهرباء وخنقهم في غرف الغاز. ولكن إمساك أمعائك وغلظة فهمك وعجزك عن الحب ومرضك بالروماتيزم وخبلك العقلي لن

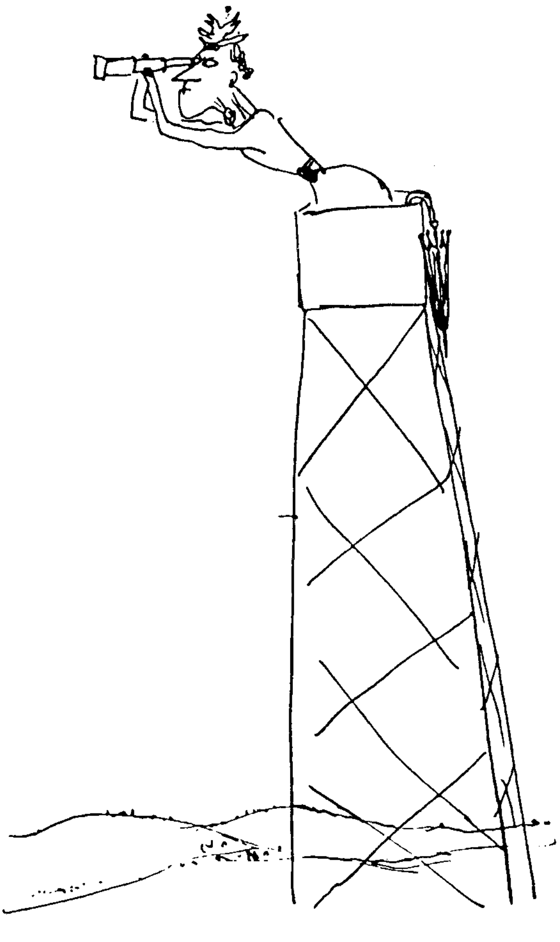
يتغير بهم شيء. فلا الرمي بالرصاص ولا الشنق سوف يخرجك من وسخك الذي أنت غارق فيه. انظر إلى نفسك أيها الرجل الصغير! إنه أملك الوحيد!

أتذكرين أيتها المرأة الصغيرة، لما كنت تجلسين في عيادتي وتتحدثين وأنت ممتلئة بالحقد على زوجك الذي تخلى عنك؟ لقد أمسكته بقبضتك سنوات طويلة، رفقة أمك وعمتك وأبناء أخيك وأبناء عمك، حتى أخذ يذبل. ذلك أنه كان يتحتم عليه العمل من أجلك ومن أجل أقاربك. فانطلق راكضا إلي بما تبقى له من إحساس بالحياة، لأنه لم يكن قويا بما فيه الكفاية لكي يتحرر منك. وكان يدفع ثلاثة أربا ع مدخوله الشهري نفقة لك، عقابا له على حبه للتحرر من القمع. ذلك أنه كان فنانا والفن والعلم الحقيقي لا يحتملان القيود. أما أنت فكنت تريدينه فقط أن يدفع لك مصاريف البيت، رغم أنك كنت تكرهينه ورغم أنك كنت قد تعلمت مهنة. وعرفت أنني سأساعده لكي يتحرر من واجبات لا مبرر لها، فاشتعلت غضبا. هددتني بالبوليس وقلت لي بأني أريد أن أسرق كل ماله. لقد اتهمتني بكل ما كنت أنت تفكرين به، أيتها المرأة البئيسة، الصغيرة. ولكن العمل على تحسين مواهبك المهنية أمر لم تفكري به، لأن ذلك يعني أن تصبحي حرة، غير محتاجة لرجل، هذا الرجل الذي تكرهينه منذ سنوات. أتظنين أنك بهذه

الطريقة سوف تبنين عالما جديدا؟ كنت صديقة لبعض الاشتراكيين. سمعت ذلك. كانوا يعرفون "كل" شيء عني ألا ترين أن الملايين من أمثالك هم من دمروا هذا العالم؟ أعرف، أعرف أنك "ضعيفة"، "وحيدة" و"متعلقة" بأمك و"لا حول لك" وأنك تحقدين على حقدك نفسه ولا تتحملين نفسك وتشكين بقدراتك! ولهذا السبب تدمرين حياة زوجك، أيتها المرأة الصغيرة وتسبحين في تيار الحياة كما هو اليوم. أعرف أيتها المرأة الصغيرة أنه إلى صفك يقف بعض القضاة والمحامين، ذلك لأنهم يملكون جوابا على بؤسك.

أراك وأسمعك أيتها الموظفة الصغيرة في مؤسسة حكومية، تتحدثين عن ماضيّ وحاضري ومستقبلي وعن نيتي ورأيي حول الملكية وروسيا والديمقراطية. إنهم يسألون عن وضعي الاجتماعي. أقول بأني أملك العضوية الشرفية في ثلاث جمعيات علمية وأدبية، من بينها الجمعية العالمية للبلازموجني. مفتش الدولة يبدو عليه الاندهاش. يوما ما قال لي: إنه لأمر عجيب. في البروتوكول الذي توصلت به، مكتوب فيه أنك عضو شرفي في الجمعية العالمية للبوليغامي (تعدد الزوجات) هل هذا صحيح؟" وضحكنا سويا على خطئك الصغير، أيتها المرأة الصغيرة! هل عرفت الآن كيف أحقق شرفي وكيف لا أحققه؟ عبر خيالك وليس عبر طريقتي في الحياة. ألم تحتفظي من كل فلسفة روسو وحياته سوى بشيء

واحد أنه دعا إلى العودة إلى الطبيعة وأنه أهمل أطفاله وبعث بهم إلى مأوى للقطاء. إنك في عمقك شريرة، تغفلين عن الجميل وتقبلين على القبيح!



"اسمعوا يا ناس! لقد رأيته في الساعة الواحدة ليلا يغلق ستائر نافذته! ماذا كان يريد أن يفعل؟ وخلال النهار تظل ستائر نافذته مشرعة على آخرها. هل من سبب وراء ذلك!"

لن ينفعك استخدام هذه الطرق لمنع انتشار الحقيقة، فنحن نعرفك جيدا. أنت لا تهتم بستائر نافذتي بل بحجب حقيقتي. إنك تريد أن تظل مدع ومغتاب وتريد أن تذهب بجارك إلى الحبس، عندما لا تعجبك طريقة حياته، لأنه طيب أو متفتح ولأنه يعمل ولا يهتم بك. إنك فضولي جدا أيها الرجل الصغير، إنك تتشمم الأخبار وتفتري الأكاذيب، أفلا تحميك قوانين البوليس التي لا تقبل الأدعياء أبدا كشهود.

"أتسمعون يا دافعي الضرائب! إنه أستاذ فلسفة. جامعة كبيرة تريد أن تعينه أستاذا للشباب. يا للفضيحة! ليسقط! وليحيا دافع الضرائب! فلتمنعوا الانتخاب الحر للأساتذة! وأنت يا ربة البيت، يا دافعة الضرائب، يكفي احتجاج واحد ضد أستاذ الحقيقة حتى لا يتم تعيينه. كنت أقوى من ٤٠٠٠ سنة من فلسفة الطبيعة، يا ربة البيت، دافعة الضرائب الصغيرة، الأم المخلصة لكل الوطنيين. لكن المرء بدأ يفهمك ويفهم حقيقة تصرفاتك.

"اسمعوا، اسمعوا يا حراس الأخلاق المخلصين! هناك في ركن الشارع تعيش أم رفقة ابنتها. الابنة لها صديق

تستقبله كل ليلة. يجب أن تحاكموا الأم بتهمة القوادة! يا رجال الشرطة! يا رجال الشرطة! احموا "الأخلاق والهدوء والنظام!"

وسوف تتم معاقبة هذه الأم أيها الرجل الصغير، لأنك تتجسس في نهم على الأسّرة الأجنبية. لقد فضحت نفسك إلى أبعد الحدود. إننا نعرف الدافع وراء دعوتك إلى "الأخلاق والهدوء والنظام". ألا تحشر يدك تحت سترة كل نادلة في البار، أيها الرجل الأخلاقي الصغير؟ نريد لأبنائنا أن ينعموا بالحب في حرية وليس كما تريد دائما خلف الأسوار والسلالم الخلفية. إننا نريد أن نعلن عن تقديرنا للأباء والأمهات الذين يفهمون ويحمون الحب لدى أطفالهم. هؤلاء الأباء والأمهات هم البذرة التي ستنبت منها أجيال المستقبل الجديدة، السليمة الجسد والحواس، دون أثر لخيالك الخنزيري، يا رجل القرن العشرين الصغير والعاجز!

"اسمعوا، اسمعوا! أيها الرجال المخلصون! هل سمعتم هذا الجديد؟ إني أعرف رجلا يزوره طلبا للنصيحة، لقد تحرش به جنسيا فهرب الرجل وسرواله ساقط إلى ركبتيه..."

ألا يسيل لعاب شهواني من فمك، أيها الرجل الصغير وأنت تحكي هذه "الحكاية الحقيقية"؟ أتعرف بأنها تنمو من غائطك؟ من طبيعتك الكريهة والمتسخة، من مرض الإمساك الذي أصبت به ومن نهمك البغيض؟ لم تكن لي أبدا رغبات مثلية،

مثلك أيها الرجل الصغير ولم أتحرش يوما بطفلات صغيرات مثلك، أيها الرجل الصغير ولم أغتصب يوما امرأة، مثلك أيها الرجل الصغير ولم أعان مثلك من مرض الإمساك، لقد عانقت دائما النساء في حب، إذا ما عبرن عن رغبتهن بي وإذا ما رغبت بهن، أيها الرجل الصغير، لم أسرق الحب مثلك ولم أعر عن جسدي كما تفعل أنت أمام الملأ وليس لي أبدا خيالات متسخة مثلك أيها الرجل الصغير!

"اسمعوا، اسمعوا، أيها الناس الطيبون! لقد كانت له سكرتيرة، تحرش بها فهربت منه. لقد سكن معها في بيت واحد، ستائر نوافذه كانت مغلقة وكان الضوء مشتعلا في غرفته في الساعة الثالثة صباحا!"... وأنه شهواني، اختنق بفعل فطيرة لحم، قلت عن لامتري وعن الأمير رودولف قلت بأنه تزوج زواجا مدنيا وعن زوجة روزفلت قلت أيها الرجل الصغير بأنها امرأة غير صالحة وعن رئيس جامعة ما أنه ضبط زوجته وأن المعلمة في القرية الصغيرة لها عاشق. ألم تقل ذلك، أيها الرجل الصغير؟ آه منك أنت يا مواطن الأرض البئيس، مازلت تقامر بحياتك منذ آلاف السنين ومازلت تعيش في الوسخ!

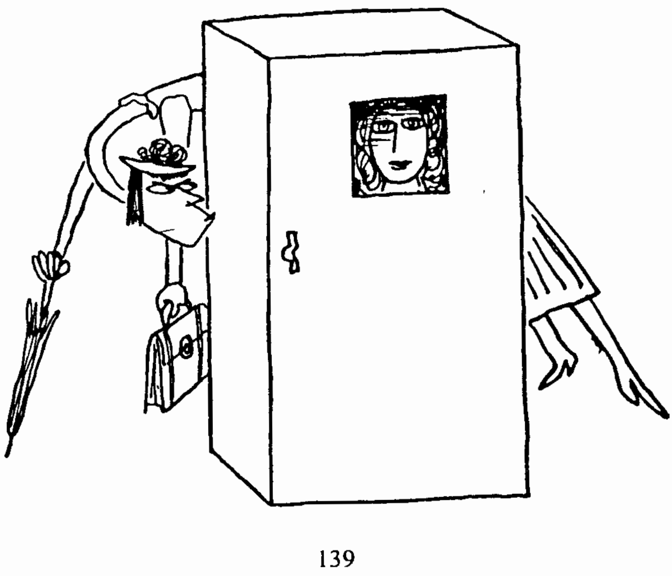
"امسكوه، إنه جاسوس ألماني، ولربما هو جاسوس روسي أو أيسلندي! لقد رأيته في الثالثة مساء في الشارع رقم ٨٦

بنيويورك وزيادة على ذلك، كانت برفقته امرأة!"

أتعرف أيها الرجل الصغير، كيف تخرج بقة في ضوء الشمال؟ لا؟ ألا تعرف ذلك؟ لقد ظننت ذلك! سوف تسن يوما قوانين ضد طبيعتك "البقّية"، أيها الرجل الصغير، قوانين صارمة لحماية الحقيقة والحب! وكما تحشر اليوم الشباب الممتلئ حبا بالسجن، سوف يأتي يوم يتم حشرك فيه بمستشفى الأمراض العقلية، إذا ما حاولت إلقاء قاذوراتك على الرجال المحترمين. سيكون هناك نوع آخر من القضاة ومحاميي الحقيقة لا يشبهون في شيء ما هو موجود اليوم، لا يدافعون عن عدالتك الصورية ولكن عن الحق والطيبة. وستكون هناك قوانين أخرى، صارمة لحماية الحياة، التي سيتوجب عليك اتباعها، أيها الرجل الصغير، رغما عن أنفك. أعرف أنك ستفوح بالعطانة طيلة خمس أو عشر قرون أخرى وأنك ستكفر وتدبر المكائد وتمارس الديبلوماسية وتنصب محاكم التفتيش.... لكنك سوف تخضع في النهاية لإحساسك بالصفاء الذي تطمره اليوم بداخلك.

أقول لك: لا قيصر يستطيع الانتصار عليك ولا أب لبروليتاريا كل الأوطان! لقد استطاعوا فقط استعبادك ولكن لا أحد منهم أراد تحريرك من ضآلتك. إحساسك بالصفاء، حنينك إلى الحياة سوف ينتصر عليك، ما في ذلك شك!

مطهرا من صغارك وصغائرك سوف تبدأ بالتفكير، في البداية شاك باك ومخطئ، بعيد عن الهدف، لكنك ستبدأ التفكير بطريقة جدية. سوف تعيش الألم وتتعلم تحمله، الألم الذي سينتج عن تفكيرك، تماما كما توجب علي وعلى أمثالي أن نتحمل ألم التفكير بك لسنوات، صامتين، عاضين على النواجذ. آلامنا سوف تقودك إلى التفكير. وإذا ما بدأت يوما بالتفكير، سوف تندهش لماذا لم تستطع تحرير نفسك، مندهشا أمام ٤٠٠٠ سنة الأخيرة من حضارتك. سوف لن تفهم كيف كان ممكنا أن تكتب جرائدك عن اللاشيء، عن الديكور والاستعراض وتعليق الميداليات والإعدامات والديبلوماسية والإهانة والتمويه والتعبئة والتسريح وعقد



الأحلاف والتمرين الميداني والقصف والرشوة دون أن يخرجك ذلك عن طورك. لو أنك افترست كل ورق الجرائد بصبر عبد، لكنت استطعت أن تفهم حقيقتك. ولأنك لم تعمل عبر القرون أكثر من أن تقلد الآخرين مثل قرد، وأن تردد أقوالهم مثل ببغاء، وأن تعتبر أفكارك الصحيحة خاطئة، والخاطئة وطنية... هذا الشيء، أيها الرجل الصغير لن تستطيع هضمه بسهولة. سوف تخجل أمام تاريخك، وهذا هو الأمل الوحيد، حتى لا نزعج أحفاد أحفادنا بدرس التاريخ. وسوف لن يكون بإمكانك إشعال الثورات، من أجل العودة إلى بطرس "الكبير" أو "القوي".

نظرة إلى المستقبل

لن أستطيع أن أقول لك الصورة التي سيكون عليها مستقبلك. لا أعرف إن كنت ستستطيع بفضل اكتشافي للأورغون الكوني الوصول إلى القمر أو إلى المريخ. كما أني لا أعرف بأية طريقة سوف تطير وتحط صواريخك أو أنك ستضيء بيوتك ليلا بأشعة الشمس أو أنك عبر فتحة في جدار غرفتك سوف تستطيع التخاطب من بغداد إلى استراليا. لكنه بإمكاني أن أقول لك ما لن تقوم به في ٥٠٠ أو ١٠٠٠ أو ٥٠٠٠ سنة.

"اسمعوا، اسمعوا! الخيالي! بإمكانه أن يقول ما لن أقوم به في المستقبل! هل هو ديكتاتور؟"

لست ديكتاتورا، أيها الرجل الصغير، على الرغم من أنه كان سهلا علي، بسبب صغائرك أن أصبح واحدا. أما ديكتاتوريوك، فبإمكانهم أن يقولوا لك فقط ما الذي عليك ألا تقوم به في الحاضر حتى لا يلقى بك إلى غرف الغاز. لكنهم لا يستطيعون أن يقولوا لك ما لن تفعله في المستقبل البعيد، لأن الأمر يختلف عن شجرة، يعملون على استعجال نموها.

"ومن أين تخلق حكمتك، أيها الخادم الثقافي للثورة البروليتارية؟"

من أعماقك ذاتها، أيها البروليتاري الأبدي للعقل الإنساني!

"اسمعوا، اسمعوا! انه يخلق حكمته من أعماقي ذاتها...! لكني لا أملك عمقا! وما هي هذه الكلمة الفردية: العمق...!"

أجل، أجل أيها الرجل الصغير، إن لك عمقا بداخلك ولا تعرفه. إنك تشعر بالخوف، خوفٍ قاتل من عمقك، لهذا السبب لا تحسه ولا تراه. لهذا يجعل رأسك يدور، حين تنظر إليه، وتتأرجح كما لو أنك على شفا هوة. إنك تشعر بالخوف من السقوط ومن فقدان "طبيعتك"، إذا توجب عليك السقوط أو الذهاب. إذ بالرغم من الإرادة الطيبة، إرادة الوصول إليك، إلى

عمقك، لا يخرج منك سوى الرجل الصغير، المتوحش، الحسود، الجشع، اللص. لم أكن لأكتب لك هذا الخطاب الطويل، لو لم تكن عميقا في عمقك، أيها الرجل الصغير. أعرف هذا العمق بداخلك، ذلك إني اكتشفته كطبيب، لما حضرت إلي محملا بأحزانك. وهذا العمق بداخلك، هو مستقبلك الكبير! لهذا السبب بإمكاني أن أقول لك ما لن تفعله في المستقبل، بالتأكيد لن تفعله، لأنك لن تفهم في المستقبل، كيف كان ممكنا طيلة ٤٠٠٠ سنة القيام بصغائر الأشياء التي قمت بها. أتريد أن تسمع أكثر؟

"لماذا لا أصغي مرة أخرى إلى يوطوبيا جميلة؟ ليس هناك ما يفعل، أيها الطبيب الطيب! كنت وسأظل الرجل الصغير من الشعب، الذي لا يملك رأيا خاصا به... ومن أكون، حتى يكون..."

اخرس الآن! إنك تختفي خلف أسطورة الرجل الصغير، لأنك تخاف السقوط في تيار الحياة، تخاف السباحة في التيار من أجل أبنائك وأبناء أبنائك!

أول الأشياء التي ستقوم بها في المستقبل أو ستهملها من بين أشياء كثيرة أخرى، هو أنك لن تحس بنفسك كرجل صغير، لا رأي له، يردد دائما: "من أكون أنا...؟" أن لك رأيك الخاص بك وسوف تنظر إلى ذلك الأمر كفضيحة حياتك، ألا

يكون لك رأي وألا تعبر عنه وتدافع عنه.

"ما الذي سيقوله الرأي العام إذن عن رأيي؟ سوف يتم سحقي مثل دودة إذا ما عبّرت عن رأيي!"

ما تسميه رأيا عاما أيها الرجل الصغير، هو حاصل أراء صغار الرجال والنساء. كل رجل صغير له في داخله رأي صحيح وآخر خاطئ وكل امرأة صغيرة. والآراء الخاطئة ناتجة عن الخوف من الآراء الخاطئة الأخرى للرجال والنساء الصغار الآخرين. لهذا لا تظهر الآراء الصحيحة. لن تعتقد في المستقبل، بأنك لا تساوي شيئا. سوف تعرف وتمثل حقيقة أنك حامل أساس هذا المجتمع البشري... إلى أين تعدو؟ توقف! لا تخف! ليس سيئا أن يكون المرء ممثلا مسؤولا للمجتمع الإنساني!

"ما الذي يتوجب علي عمله، توظيفه، حتى أصبح ممثلا للمجتمع...؟"

لا يتوجب عليك أن تقوم بشيء خارق للعادة أو توظف شيئا جديدا. عليك فقط أن تواصل عملك الذي تقوم به الآن: أن تزرع حقلك وأن تلوح بمطرقتك وأن تعالج مرضاك وأن تأخذ أطفالك إلى اللعب أو المدرسة وأن تواصل كشفك لأسرار الطبيعة. كلها أشياء تقوم بها اليوم، لكنك تعتقد بأنها أشياء غير مهمة وأن فقط ما يقوله أو يقوم به المارشال دكوراتوس أو الأمير

انفلاتوس، الفارس النبيل، هو المهم.

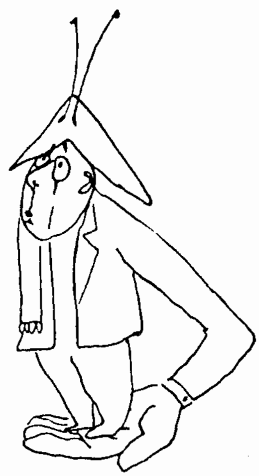
"دكتور، إنك خيالي! ألا ترى بأن المارشال دكوراتوس والأمير انفلاتوس، الفارس النبيل، لهما أسلحة وجيوش لخوض الحروب وأنه مفروض علي أن أنضم اليهم وإلا أطلقوا النار على حقلي ومصنعي ومختبري ومكتبي؟"

إنهم يدفعون بك إلى ساحة القتال ويطلقون النار على حقلك ومكتبك، لأنك تصرخ دائما: نعم، نعم، نعم، كلما تم تجنيدك أو إطلاق النار على حقلك ومصنعك. الأمير انفلاتوس، الفارس النبيل، لم يكن ليتوفر على أسلحة وجنود، لو أنك كنت تعرف بأن حقلك عليه أن ينبت قمحا وأن على مصنعك أن ينتج أثاثا وأحذية وليس أسلحة وأن الحقول والمصانع لم توجد لكي يطلق عليها الرصاص. كل هذه الأشياء لا يعرفها المارشال دكوراتوس والأمير انفلاتوس، لأنهم لم يعملوا يوما بالحقل ولا بالمصنع أو المكتب، بل لأنهم يعتقدون بأن عملك هو من أجل شرف الألمان أو بروليتاريا كل البلدان وليس من أجل إطعام أبنائك وكسوتهم.

"ما الذي علي عمله؟ إنني أكره الحرب وزوجتي تبكي في خوف إذا ما تم تجنيدي وأطفالي يجوعون إذا ما استعمرت جيوش البروليتاريا بلدي وتتجمع الجثث ملايين المرات. إني أريد فقط زراعة حقلي ومساء بعد الانتهاء من العمل اللعب مع

أطفالي وليلا أن أسكن إلى زوجتي وأيام العطلة أريد سماع موسيقى وأريد أن أرقص وأغنّي... ما الذي علي عمله؟"

ليس عليك ما تعمله أكثر من أن تستمر بعملك الذي قمت به دائما وأن تحافظ على نمو أطفالك في سعادة وأن تحب زوجتك في الليل.



لو أنك قمت بذلك بوعي ورباطة جأش، لما كانت هناك حرب ولما سقطت زوجتك فريسة لجنود وطن البروليتاريا ولما جاع أطفالك في الشوارع بلا أباء وأمهات ولما سقطت بعيون متجمدة في ساحة ما من "ساحات الشرف".

"ما الذي علي عمله، إذا ما أردت أن أشعر بالحياة في عملي ورفقة زوجتي وأطفالي والألمان واليابانيون أو الروس أو أي شعب آخر يقترب مني لكي يفرض علي الحرب؟ إذن علي أن أدافع عن بيتي وعن موقد الطبخ!"

معك حق أيها الرجل الصغير، إذا ما أراد أحدهم الاعتداء عليك، فيجب أن ترفع في وجهه السلاح. لكنك لا ترى أن أعداءك أيضاً ليسوا سوى الملايين من الرجال الصغار الذين يصرخون دائما بحياة الزعيم، إذا ما ناداهم أميرهم انفلاتوس، أو الفارس النبيل إلى القتال وأنهم مثلك يعتقدون انهم لا شيء ويقولون "من أكون، حتى يكون لي رأي خاص بي؟"

لو أنك عرفت يوما من أنت وكونت رأيا خاصا بك وعرفت أن حقلك ومصنعك يجب أن يخدما الحياة وليس الموت، إذن لكان بإمكانك أيها الرجل الصغير أن تجيب بنفسك على السؤال الذي طرحته علي. لا تحتاج إلى ديبلوماسيين من أجل حل هذه المشكلة، فبدل أن تصرخ دائما: "نعم.. نعم.. نعم." وأن تضع أكاليل الزهور على قبر الجندي المجهول (جنديك المجهول، أيها الرجل الصغير معروف بالنسبة لي. تعرفت عليه في جبال إيطاليا، لما كنت أقاتل عدوي اللدود. إنه رجل صغير مثلك، أعتقد هو الآخر بأنه لا رأي له وظل يسأل من

أكون أنا حتى يكون لي رأي؟) فبدلا من أن تترك أميرك انفلاتوس وفارسك النبيل أو مارشالك، مارشال بروليتاريا كل البلدان يدوسون وعيك القومي، يتوجب عليك أن تواجههم بوعيك وعملك. بإمكانك أن تتعرف على أخيك في الصين واليابان وفي كل العالم وأن تقنعه بفهمك الصحيح للواجب كعامل وطبيب ومزارع وأب وزوج، أن تقنعه بأن يتعلق بعمله وحبه حتى تصبح كل حرب مستحيلة.

"صحيح، جيد وجميل! لقد صنعوا قنابل نووية، واحدة من هذه القنابل كانت كافية لقتل آلاف البشر!"

إنك مازلت تفكر بطريقة خاطئة، أيها الرجل الصغير! أتظن بأن أميرك انفلاتوس، فارسك النبيل هو من صنع قنبلتك النووية؟ لا، بل هم رجال صغار من صنعوها، أولئك الذين لا يحسنون سوى الصراخ بـ نعم.. نعم.. نعم...، بدل أن يتوقفوا عن صنع القنابل! أترى أن كل شيء يمر عبرك، أيها الرجل الصغير، عبر تفكيرك الصحيح أو الخاطئ. ولو لم تكن رجلا صغيرا جدا، رجلا صغيرا ميكروسكوبيا، لكنت طورت بدلا عن الوعي القومي وعيا عالميا، ولما سمح عقلك الكبير للقنبلة الذرية أن تعرف طريقها إلى العالم. إنك تدور في حلقتك المفرغة، أيها الرجل الصغير، دون أن تجد مخرجا، لأن نظرك وتفكيرك يعملان بطريقة خاطئة. وواسيت كل الرجال الصغار

بأن طاقتك الذرية سوف تعالج سرطانهم والتهاب مفاصلهم، في الوقت الذي كنت تعرف فيه أن ذلك شيء مستحيل. أنك صنعت سلاحا قاتلا ولاشيء آخر. وسقطت بذلك في نفس المأزق الذي سقطت فيه فيزياؤك. إنك تعرف ذلك، لكنك لا تقوله. لقد انتهيت وإلى الأبد! وتعرف أيها الرجل الصغير، ذلك أني قلت لك ذلك بصوت مرتفع وفي وضوح بأني أهديتك علاجا لكل أمراضك (الطاقة الكونية) لكنك تصمت عن ذلك، وتستمر في الموت بسبب السرطان والسكتة القلبية، وفي موتك تستمر بالصراخ "لتحيا الثقافة والتقنية" أما أنا، فإني أقول لك أيها الرجل الصغير، بأنك حفرت قبرك بأعين مفتوحة. إنك تظن بأن "عهد الطاقة الذرية" قد بدأ. أجل، لقد بدأ ولكن ليس كما تظن. ليس في جحيمك ولكن في بيتي الذي يسوده الصمت والعمل في مكان ناء بأمريكا.

إن الأمر مرتبط بك، من البداية وحتى النهاية، هل يتوجب عليك إن تزحف مع الزاحفين إلى الحرب أم لا.

هل تعرف أنك تعمل من أجل الحياة وليس من أجل الموت؟ هل تعرف إن كل الرجال الصغار على هذه الأرض، يشبهونك أيضاً في السراء والضراء؟

سوف تتوقف يوما في المستقبل القريب أو البعيد (كل شيء مرتبط بك) عن الصراخ بنعم، نعم، نعم وسوف لن تترك

حقلك ومصنعك هدفا للمدافع. سوف تتوقف عن العمل من أجل الموت وسوف لن تعمل إلا من أجل الحياة.

"هل علي أن أعلن الإضراب العام؟"

لا أعرف إن كان عليك أن تقوم بهذا الشيء أو بشيء آخر. إضرابك العام هو وسيلة سيئة. إنك تعرض نفسك بذلك لتهمة أنك تترك نساءك وأطفالك يجوعون. إنك لا تعبر عن مسئوليتك الكبيرة من أجل سلامة أمن المجتمع لما تضرب عن العمل أيها الرجل الصغير. حين تضرب، لا تعمل. أما أنا فإني قلت لك بأنك سوف تعمل يوما من أجل حياتك ولن تضرب عن العمل. فلتسمه "عملا إضرابيا" إن كنت متعلقا بكلمة إضراب. لكن أضرِب عن طريق العمل من أجلك وأطفالك وزوجتك وبناتك ومجتمعك ومنتجك أو حقلك. قل لهم، بأنك لا تملك وقتا لحربهم، بأن لديك أشياء أهم تقوم بها. ولتسيج كل مدينة بحقل، تحيطه بسور من الآجر عال، ودع الديبلوماسيين والمارشالات شخصيا يطلقون النار على بعضهم البعض. إن هذا ما كنت ستقوم به أيها الرجل الصغير، لو أنك لم تصرخ: "نعم، نعم، نعم" ولو أنك لم تعتقد بأنك لا تساوي شيئا ولا رأي لك ومن تكون حتى يكون لك...!

إن كل شيء ملك يمينك، حياتك وحياة طفلك، مثل مطرقتك أو سماعتك الطبية! أعرف أنك تهز رأسك وتظن إنني

طوباوي.. أو "أحمر".

إنك تسأل متى تصبح حياتك جيدة وآمنة، أيها الرجل الصغير. إن الجواب غريب عن جوهرك:

إن حياتك ستصبح جيدة وآمنة إذا كان ما هو حي بداخلك أهم بالنسبة لك من الأمن وإذا كان الحب بالنسبة لك أهم من المال وحريتك أكثر من مجرد رأي حزبي أو عام وإذا ما عم صفاء موسيقى بيتهوفن وباخ حياتك كلها (لقد أخفيت هذا الصفاء في ركن عميق بداخلك!) وإذا ما اصبح فكرك في انسجام مع أحاسيسك وليس في تناقض وإذا ما أدركت مواهبك في الوقت المناسب وشيخوختك أيضاً في الوقت المناسب وإذا ما بدأت تعيش أفكار الحكماء الكبار وليس جرائم المحاربين الكبار وإذا ما جازيت أساتذة أطفالك اكثر من سياسييك وإذا توقفت عن اعتبار وثيقة الزواج أكثر قداسة من الحب بين رجل وامرأة وإذا ما أدركت خطأ أفكارك في الوقت المناسب وليس متأخرا مثل اليوم وإذا ما أحسست بالسمو عند سماع الحقائق وبالفزع عند سماع الترهات وإذا ما تواصلت مع رفاق العمل في البلدان الأخرى مباشرة وليس عن طريق الديبلوماسيين وإذا ما جعلك الحب الذي تحس به ابنتك تهتز طربا وليس غضبا وإذا ما فكرت في الأزمان التي كانوا يمنعون فيها الأطفال الصغار من مداعبة أعضائهم

التناسلية بأسف وأسى وإذا ما اشتعلت وجوه الناس في الشوارع بالحرية والحركة والصفاء وليس بالحزن والبؤس كما هو الحال في أيامنا هذه وإذا ما توقفت أجسادهم عن التحرك فوق هذه الأرض، بأرداف منكمشة، متجمدة وبأعضاء تناسلية باردة.

تريد الزعامة والنصيحة، أيها الرجل الصغير. لقد حصلت على الزعامة والنصيحة الجيد منها والسيئ عبر آلاف السنوات. ليس سبب ما أنت فيه من بؤس النصائح السيئة ولكن صغارك. بإمكاني أن أقدم لك نصائح جيدة، لكنه لن يكون بمستطاعك في حالتك هذه، أن تعمل على تحقيقها لما فيه خير الجميع.

إنني أنصحك أن توقف ديبلوماسيتك مرة وللأبد وأن تستبدلها بأخوتك المهنية والشخصية مع كل الإسكافيين والحدادين والنجارين والتقنيين والأطباء والمربين والكتاب والصحفيين والموظفين وعمال الجبل ومزراعي انجلترا، المانيا، روسيا، أمريكا، الارجنتين، البرازيل، فلسطين، البلاد العربية، تركيا، الاسكندناف، التيبت، اندونيسيا، وأن توضح لكل صناع الأحذية في العالم، الطريقة الجيدة لصنع أحذية لأطفال الصين وأن تترك عمال الجبل بأنفسهم يعثرون على السبب وراء هذا الثلج الذي يقتل الناس في كل مكان وأن تترك

المربي في كل الأوطان والقوميات يفهم كيف تتم حماية المواليد الجدد من العجز الجنسي والخبل العقلي مستقبلا. ماذا كنت ستعمل أيها الرجل الصغير أمام هذه الأشياء البديهية؟

كنت بلا شك ستعارضني أنت نفسك أو عن طريق فم أحد ممثلي حزبك أو كنيستك أو حكومتك أو جمعيتك المهنية، (هذا إذا لك أن تسجنني مباشرة بدعوى أني "شيوعي") "من أكون حتى استبدل العلاقات الديبلوماسية العالمية بعلاقات عملية واجتماعية؟"

أو:

"إنه ليس بإمكاننا أن نتجاوز الاختلافات القومية في التقدم الاقتصادي والثقافي"

أو:

"هل علينا أن نتعاون مع الفاشيين الألمان أو اليابانيين أو الشيوعيين الروس أو مع الرأسماليين الأمريكان؟"

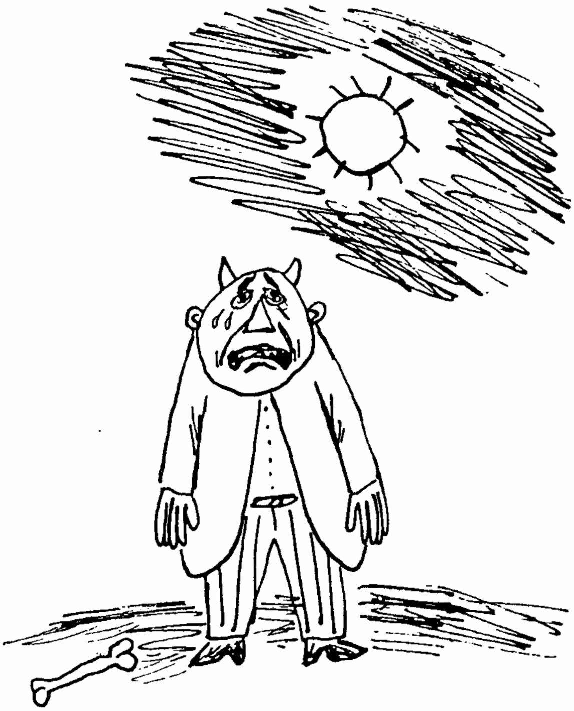
أو:

"أنا مهتم كمواطن فقط بوطني الروسي أو الألماني أو الأمريكي أو الإنجليزي أو اليهودي أو العربي"

أو:

"أن لي أشياء كثيرة أقوم بها حتى انظم حياتي وأتفاهم مع

نقابة الخياطين. دعوا أحدا آخر يهتم بخياطي الدول الأخرى"



أو:

"لا تصغوا إلى هذا الرأسمالي، البولشفي، الفاشي، التروتسكي، العالمي، الجنسي، اليهودي، الاجنبي، المثقف،

الحالم، الطوباوي، مشوه الحقيقة، الخيالي، الأحمق، الفردي، الفوضوي! أليس لكم وعي أمريكي، روسي، ألماني، إنجليزي أو يهودي؟"

سوف تعمد بلا شك إلى استغلال مثل هذه الكلمات من أجل التنصل من مسئوليتك الإنسانية.

"أليس لي أدنى قيمة؟ إنك تحولني إلى فتات، ألست إنسانا يعمل بجدية من أجل إطعام زوجته واطفاله، محاولا أن يجعل من حياته حياة محترمة، وأن يخدم وطنه؟! لا يمكنني أن أكون سيئا إلى هذا الحد! "

أعرف إنك كائن حي محترم واجتماعي وعامل مثل نحلة أو نملة. لقد فضحت فقط الرجل الصغير بداخلك الذي يحطم حياتك وحطمها منذ آلاف السنين. انك كبير أيها الرجل الصغير، حين تتجاوز صغارك وصغائرك. كبرك، هو الأمل الأخير الذي تبقى لنا. أنت كبير إذا ما اعتنيت بعملك، أنجزته بحب، إذا ما شعرت بالفرحة لحظة البناء والرسم والتربية والبذار، وحين رؤيتك للسماء والزرقة والغزلان وضوء الصباح وحين سماعك للموسيقى أو رقصك، رؤيتك نمو أطفالك، جسد زوجتك الجميل أو زوجك، وإذا ما رحلت إلى الكواكب من أجل فهم النجوم وإذا ما ذهبت إلى المكتبات لتسمع ما قاله رجال آخرون ونساء حول الحياة. وأنت كبير

أيها الجد إذا ما حملت حفيدك بين يديك وحدثته عن أيام زمان، وإذا ما حدقت عبر فضوله الجميل والطفولي إلى المستقبل المجهول. وأنت كبيرة أيتها الأم وأنت تنيمين طفلك وتغرورق عيناك بالدمع وأنت تفكرين في مستقبله، كبيرة إذا ما عملت كل ساعة على تشييد هذا المستقبل بداخله.

إنك كبير، أيها الرجل الصغير، لما ينطلق صوتك بغناء الأغاني الشعبية الطيبة، الحارة أو لما تترنح راقصا على إيقاع الموسيقى، ذلك لان الأغاني الشعبية جيدة، وصحية وهي موجودة في كل مكان بهذا العالم. وأنت أيضاً كبير لما تقول لأصدقائك:

"أشكر قدري الذي مكنني من أن أحيا حياة حرة من الوسخ والجشع وأن أعيش لأرى أبنائي يكبرون، تأتأتهم الاولى، وقوفهم ولعبهم، أسئلتهم وضحكهم وأن أحتفظ بقدرتي على الإحساس بالربيع وهوائه الرطب وأن أحس بخرير الماء وزقزقة العصافير في الغاب وأن أنأى بنفسي عن ثرثرة الجيران الأشرار وأن أشعر بين أحضان زوجتي بالسعادة، أحس كهربة الحياة بجسدي، أني في أوقات الضيق لم أته عن طريقي وأن حياتي تمتلك معنى واستمرارية. ذلك أنى أصغي دائما إلى أعماقي وداومت على اتباع صوتي الداخلي الذي كان يقول لي: لا شيء أهم من أن يعيش الإنسان حياته

سعيدا! اتبع قلبك حتى لو نأى بك عن سبل الأرواح الخائفة. لا تتصلب حتى لو قست عليك الحياة يوما. وإذا ما جلست في مساء هادئ، بعد يوم من العمل، رفقة زوجتي وأبنائي، أمام البيت، وتنفست هواء الطبيعة، ترتفع الأغنية بداخلي، الأغنية التي طالما أحببت سماعها، أغنية الكثيرين، أغنية المستقبل: "فلتعانقوا بعضكم البعض أيها البشر...! " ثم أتوسل إلى هذه الحياة أن تعلمني كيف أدير حقوقها، وكيف أهدي القساة، والخائفين الذين بسببهم تدوي المدافع. إنهم يفعلون ذلك، فقط لأن الحياة تهرب منهم. أعانق طفلي الصغير، الذي يسألني: "الشمس! لقد غربت! أين رحلت الشمس؟ هل ستعود مرة أخرى" وأقول له: "أجل يا بني، أن الشمس ستعود مرة اخرى وسوف تمنحنا دفئها من جديد."

لقد وصلت إلى نهاية خطابي إليك، أيها الرجل الصغير ولكن ما تبقى لي أن أقوله ليس له نهاية. هل قرأت خطابي بانتباه، وجدية؟ هل ستكتشف نفسك أيضاً صغيرا هناك، حيث لم أقدك. ذلك أنها دائما نفس النغمة التي تنطلق من تصرفاتك، وأفكارك الصغيرة.

بعدما اقترفته يداك بحقي أو ما ستقترفه وسواء عليك سميتني عبقريا أو سجنتني بمصحة المجانين، سواء عليك قدستني كمنقذك أو أعدمتني بتهمة الجاسوسية، عاجلا أو

آجلا سوف تدرك بأني اكتشفت قوانين الحياة، أني منحتك الوسيلة التي بها تقود حياتك، بعدما قضيت وقتا طويلا لا تعرف فيه أكثر من قيادة الآلات. لقد كنت مهندسا وفيا لجسدك. وأبناء أبنائك سوف يقتفون آثاري وسوف يصبحون مهندسين جيدين للطبيعة. لقد كشفت لك الغنى اللامتناهي للحياة، الجوهر الكوني. أن هذا هو جزائي الكبير.

أما بالنسبة للديكتاتوريين والطغاة، الأذكياء منهم والمسمومين، الخنافس، والضباع فإني أعيد عليهم كلمات حكيم قديم:

اغرس لواء الكلمات المقدسة
في هذا العالم
حتى لو كانت النخلة قد يبست منذ زمن
والصخرة تفتّتت
حتى لو كان الملوك العظام قد تساقطوا
مثل ورق ميت يعفره التراب:
حاملين عبر كل طوفان آلاف السفن
كلمتي: يوما ما سيخفق عاليا!

# هذا الكتاب

أعرف إنك كائن حي محترم واجتماعي وعامل مثل نحلة أو نملة. لقد فضحت فقط الرجل الصغير بداخلك الذي يحطم حياتك وحطمها منذ آلاف السنين. انك كبير أيها الرجل الصغير، حين تتجاوز صغارك وصغائرك. كبرك، هو الأمل الأخير الذي تبقى لنا. أنت كبير إذا ما اعتنيت بعملك، أنجزته بحب، إذا ما شعرت بالفرحة لحظة البناء والرسم والتربية والبذار، وحين رؤيتك للسماء والزرقة والغزلان وضوء الصباح وحين سماعك للموسيقى أو رقصك، رؤيتك نمو أطفالك، جسد زوجتك الجميل أو زوجك، وإذا ما رحلت إلى الكواكب من أجل فهم النجوم وإذا ما ذهبت إلى المكتبات لتسمع ما قاله رجال آخرون ونساء حول الحياة.